لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل « ما تعبد ؟ » قال أعبد الله وكذا وكذا حتى عد أصناما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فأيهم إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك ؟ » قال : الله عز وجل. قال «فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها ؟ » قال الله عز وجل قال « فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه » قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعلمون ولا يعلمون » فقال الرجل بعد ما أسلم لقيت رجلا خصمني . هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى أبو عيسى الترمذي في جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ذلك . وقوله تعالى (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء ، فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس والرحمة معناها أن يسدده ويرفقه في الأقوال والأفعال . آخر تفسير سورة المؤمنون .

﴿ تفسير سورة النور وهي مدنية ﴾

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى هذه السورة أنزلناه ، فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي مع ماعداها (وفرضناها) قال مجاهد وقتادة : أي بينا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود . وقال البخاري : ومن قرأ فرضناها يقول فرضناها عليكم وعلى من بعدكم (وأنزلنا فيها آيات بينات) أي مفسرات واضحات (لعلكم تذكرون) ثم قال تعالى (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) يعني هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ، فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكراً وهو الذي لم يتزوج ، أو محصنا وهو الذي قد وطيء في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل ، فأما إذا كان بكرا لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما في الآية ويزاد على ذلك أن يغرب عاما عن بلده عند جمهور العلماء خلافا لأبي حنيفة رحمه الله فان عنده أن التغريب إلى رأي الإمام إن شاء غرب وإن شاء لم يغرب ، وحجة الجمهور في ذلك ماثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما : يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفا — يعني أجيرا — على هذا فزني بامرأته فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا : الرجم . فقال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى . الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام. واغد يا أنيس — لرجل من أسلم — إلى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها » فغدا عليها فاعترفت فرجمها : وفي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكرا لم يتزوج ، فأما إذا كان محصنا وهو الذي قد وطيء في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فانه يرجم كما قال الإمام مالك حدثني ابن شهاب أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود أن ابن عباس أخبره أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس فان الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله . فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال ومن النساء ، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف . أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولا ، وهذه قطعة منه فيها مقصودنا ههنا وروى الإمام أحمد عن هشيم عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس حدثني عبد الرحمن بن عوف أن عمر

ابن الخطاب خطب الناس فسمعته يقول : ألا وإن ناسا يقولون ما الرجم فى كتاب الله وإنما فيه الجلد وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ولولا أن يقول قائل أو يتكلم متكلم أن عمر زاد فى كتاب الله ما ليس منه لأثبتها كما نزلت . وأخرجه النسائى من حديث عبيد الله بن عبدالله به ، وقد روى الإمام أحمد أيضا عن هشيم عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فذكر الرجم فقال إنا لانجد من الرجم بداً فإنه حد من حدود الله تعالى ، ألا وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجم ورجمنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون إن عمر زاد فى كتاب الله ما ليس فيه لكتبت فى ناحية من المصحف ، وشهد عمر بن الخطاب وعبد الرحمن ابن عون وفلان وفلان أن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا بعده ، ألا إنه سيكون قوم من بعدكم يكذبون بالرجم وبالشفاعة وبعذاب القبر وبقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا . وروى أحمد أيضا عن يحيى القطان عن يحيى الأنصارى عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب « إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم » الحديث رواه الترمذى من حديث سعيد عن عمر وقال صحيح وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى حدثنا يزيد بن زريع حدثنا أبو عون عن محمد هو ابن سيرين قال ابن عمر نبئت عن كثير بن الصلت قال كنا عند مروان وفينا زيد فقال زيد بن ثابت كنا نقرأ : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، قال مروان ألا كتبتها فى المصحف ؟ قال ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب فقال أنا أشفيكم من ذلك قال قلنا فكيف ؟ قال جاء رجل إلى النبى ﷺ قال فذكر كذا وكذا وذكر الرجم فقال يا رسول الله اكتب لى آية الرجم قال « لا أستطيع الآن » هذا أو نحو ذلك . وقد رواه النسائى من حديث محمد بن المثنى عن غندر عن شعبة عن قتادة عن يونس بن جبير عن كثير بن الصلت عن زيد بن ثابت به ، وهذه طرق كلها متعددة متعاضدة ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة فنسخ تلاوتها وبقى حكمها معمولا به والله أعلم

وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة وهى زوجة الرجل الذى استأجر الأجير لما زنت مع الأجير ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزا والغامدية وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جلدهم قبل الرجم وإنما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة الطرق والألفاظ بالاقتصار على رجمهم وليس فيها ذكر الجلد ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعى رحمهم الله وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزانى المحصن بين الجلد للآية والرجم للسنة كما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه لما أتى بسراجة وكانت قد زنت وهى محصنة فجلدها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة فقال جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن الأربعة ومسلم من حديث قتادة عن الحسن عن حطان بن عبد الله الرقاشى عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » وقوله تعالى (ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله) أى فى حكم الله أى لاترأفوا بهما فى شرع الله وليس المنهى عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد وإنما هى الرأفة التى تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك قال مجاهد (ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله) قال إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولاتعطل وكذا روى عن سعيد بن جبير وعطاء ابن أبى رباح وقد جاء فى الحديث « تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى من حد فقد وجب » وفى الحديث الآخر « لحد يقام فى الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحا » وقيل المراد (ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله) فلا تقيموا الحد كما ينبغى من شدة الضرب الزاجر عن المأثم وليس المراد الضرب المبرح . قال عامر الشعبى (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) قال رحمة فى شدة الضرب وقال عطاء ضرب ليس بالمبرح ، وقال سعيد بن أبى عروبة عن حماد بن أبى سليمان يجلد القاذف وعليه ثيابه والزانى تخلع ثيابه ثم تلا (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) فقلت هذا فى الحكم قال هذا فى الحكم والجلد يعنى فى إقامة الحد وفى شدة الضرب وقال ابن أبى حاتم حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى حدثنا

وكيع عن نافع عن ابن عمر و عن ابن أبي مليكة عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها قال نافع أراه قال وظهرها قال قلت (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) قال يابنى ورأيتنى أخذتنى بها رأفة إن الله لم يأمرنى أن أقتلها ولا أن أجعل جلدها فى رأسها وقد أوجعت حين ضربتها ، وقوله تعالى (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أى فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنى وشددوا عليه الضرب ولكن ليس مبرحا ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك ، وقد جاء فى المسند عن بعض الصحابة أنه قال : يارسول الله إنى لأذبح الشاة وأنا أرحمها فقال « ولك فى ذلك أجر »

وقوله تعالى (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس فان ذلك يكون أبلغ فى زجرهما وأنجع فى ردعهما فان فى ذلك تفريعاً وتوبيخا وفضيحة إذا كان الناس حضورا . قال الحسن البصرى فى قوله (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) يعنى علانية ثم قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) الطائفة الرجل فما فوقه وقال مجاهد : الطائفة الرجل الواحد إلى الألف ، وكذا قال عكرمة ولهذا قال أحمد إن الطائفة تصدق على واحد ، وقال عطاء بن أبى رباح اثنان ، وبه قال إسحق بن راهويه وكذا قال سعيد بن جبير (طائفة من المؤمنين) قال : يعنى رجلين فصاعدا ، وقال الزهرى ثلاثة نفر فصاعدا وقال عبد الرزاق حدثنى ابن وهب عن الإمام مالك فى قوله (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) قال الطائفة أربعة نفر فصاعدا لأنه لا يكفى شهادة فى الزنا إلا أربعة شهداء فصاعداً وبه قال الشافعى وقال ربيعة : خمسة ، وقال الحسن البصرى : عشرة وقال قتادة أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين أى نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عثمان حدثنا بقية قال سمعت نصر بن علقمة يقول فى قوله تعالى (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) قال ليس ذلك للفضيحة إنما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة .

﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا خبر من الله تعالى بأن الزانى لا يطأ إلا زانية أو مشركة أى لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة لاترى حرمة ذلك وكذلك (الزانية لا ينكحها إلا زان) أى عاص بزناه (أو مشرك) لا يعتقد تحريمه قال سفيان الثورى عن حبيب بن أبى عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة) قال ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع لا يزنى بها إلا زان أو مشرك وهذا إسناد صحيح عنه وقد روى عنه من غير وجه أيضا ، وقد روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير والضحاك ومكحول ومقاتل بن حيان وغير واحد نحو ذلك . وقوله تعالى (وحرم ذلك على المؤمنين) أى تعاطيه والتزوج بالبغايا أو تزويج العفائف بالرجال الفجار وقال أبو داود الطيالسى حدثنا قيس عن أبى حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وحرم ذلك على المؤمنين) قال حرم الله الزنا على المؤمنين وقال قتادة ومقاتل بن حيان : حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا وتقدم ذلك فقال (وحرم ذلك على المؤمنين) وهذه الآية كقوله تعالى (محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) وقوله (محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) الآية ومن ههنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغى مادامت كذلك حتى تستتاب فان تابت صح العقد عليها وإلا فلا وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى (وحرم ذلك على المؤمنين) وقال الإمام أحمد حدثنا عارم حدثنا معتمر بن سليمان قال : قال أبى حدثنا الحضرمى عن القاسم بن محمد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رجلا من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ فى امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح وتشترط له أن

تنفق عليه قال فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ذكر له أمرها قال فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانيه لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) وقال النسائى أخبرنا عمرو بن عدى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن الحضرمى عن القاسم بن محمد عن عبدالله بن عمرو: قال كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها فأنزل الله عز وجل (الزانى لاينكح إلا زانيه أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) قال الترمذى حدثنا عبد بن حميد حدثنا روح بن عبادة عن عبيد الله بن الأخنس أخبرنى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد بن أبى مرثد وكان رجلا يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة قال وكانت امرأة بغى بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له وأنه واعد رجلا من أسارى مكة يحمله قال فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة فى ليلة مقمرة قال فجاءت عناق فأبصرت سواد ظل تحت الحائط فلما انتهت إلى عرفتنى فقالت: مرثد؟ فقلت مرثد فقالت مرحباً وأهلا هلم فبت عندنا الليلة : قال فقلت يا عناق حرم الله الزنا فقالت يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسرا كم قال فتبعنى ثمانيــة ودخلت الحديقة فانتهيت إلى غار أو كهف فدخلت فيه فجاءوا حتى قاموا على رأسى فبالوا فظل بولهم على رأسى فأعماهم الله عنى قال ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبى فحملته وكان رجلا ثقيلا حتى انتهيت إلى الاذخر ففككت عنه أحبله فجعلت أحمله ويعينى حتى أتيت به المدينة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أنكح عناقا أنكح عناقا ـ مرتين ؟ ـ فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد على شيئا حتى نزلت (الزانى لا ينكح إلا زانيــة أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) فقال رسول الله ﷺ « يا مرثد : الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها » ثم قال الترمذى هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ، وقد رواه أبو داود والنسائى فى كتاب النكاح من سننهما من حديث عبيد الله بن الأخنس به ، وقال ابن حاتم حدثنا أبى حدثنا مسدد أبو الحسن حدثنا عبد الوارث عن حبيب المعلم حدثنى عمرو بن شعيب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاينكح الزانى المجلود إلا مثله » وهكذا أخرجه أبو داود فى سننه عن مسدد وأبى معمر عن عبدالله بن عمرو كلاهما عن عبد الوارث به وقال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا عاصم بن محمد عن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أخيه عمر بن محمد عن عبد الله بن يسار مولى ابن عمر قال أشهد لسمعت سالماً يقول : قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لايدخلون الجنة ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، العاق لوالدية والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال والديوث . وثلاث لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لو الدية . ومدمن الخمر ، والمنان بما أعطى» ورواه النسائى عن عمرو بن على الفلاس عن يزيد بن زريع عن عمر بن محمد العمرى عن عبد الله بن يسار به . وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا يعقوب حدثنا أبى حدثنا الوليد بن كثير عن قطن بن وهب عن عويمر بن الأجدع عمن حدثه عن سالم بن عبد الله بن عمر قال حدثنى عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال « ثلاثة حرم الله عليهم الجنة، مدمن الخمر، والعاق لوالدية، والذى يقر فى أهله الخبث» وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده حدثنى شعبة حدثنى رجل من آل سهل بن حنيف عن محمد بن عمار عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة ديوث » يستشهد به لما قبله من الأحاديث وقال ابن ماجه حدثنا هشام بن عمار حدثنا سلام بن سوار حدثنا كثير بن سليم عن الضحاك بن مزاحم سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أراد أن يلقى الله وهو طاهر متطهر فليتزوج الحرائر » فى إسناده ضعف . وقال الإمام أبو نصر إسمعيل بن حماد الجوهرى فى كتابه الصحاح فى اللغة: الديوث القنزع وهو الذى لاغيرة له ، فأما الحديث الذى رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائى فى كتاب النكاح من سننه أخبرنا محمد بن إسمعيل بن علية عن يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة وغيره عن هارون بن رياب عن عبد الله بن عبيد بن عمير وعبد الكريم عن عبدالله ابن عبيد بن عمير عن ابن عباس. عبد الكريم رفعه إلى ابن عباس وهارون لم يرفعه قالا جاء رجل إلى رسول الله ﷺ

فقال إن عنـــدى امرأة من أحب النـاس إلى وهى لا تمنع يد لامس قال « طلقها » قال لاصبر لى عنها قال « استمتع بها » ثم قال النسائى هذا الحديث غير ثابت وعبد الكريم ليس بالقوى وهارون أثبت منه وقد أرسل الحديث وهو ثقة وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم قلت وهو ابن أبى المخارق البصرى المؤدب تابعى ضعيف الحديث وقد خالفه هارون بن رياب وهو تابعى ثقة من رجال مسلم فحديثه المرسل أولى كما قال النسائى لكن قد رواه النسائى فى كتاب الطلاق عن إسحاق بن راهويه عن النضر بن شميل عن حماد بن سلمة عن هارون بن رياب عن عبدالله بن عبيد بن عمير عن ابن عباس مسندا فذكره بهذا الإسناد فرجاله على شرط مسلم إلا أن النسائى بعد روايته له قال هذا خطأ والصواب مرسل : ورواه غير النضر على الصواب وقد رواه النسائى أيضا وأبو داود عن الحسين بن حريث أخبرنا الفضل بن موسى أخبرنا الحسين بن واقد عن عمارة بن أبى حفصة عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ فذكره وهذا الإسناد جيد . وقد اختلف الناس فى هـذا الحديث ما بين مضعف له كما تقدم عن النسائى ومنكر كما قال الإمام أحمد هو حديث منكر ، وقال ابن قتيبة : إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلا وحكاه النسائى فى سننه عن بعضهم فقال وقيل سخية تعطى ، ورد هذا بأنه لو كان المراد لقال لاترد يد ملتمس ، وقيل المراد إن سجيتها لاترد يد لامس لا أن المراد أن هـذا واقع منها وأنها تفعل الفاحشة فان رسـول الله ﷺ لا يأذن فى مصاحبة من هذه صفتها فان زوجها والحالة هذه يكون ديوثا وقد تقدم الوعيد على ذلك ، ولـكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها ممـانعة ولا مخالفة لمن أرادها لوخلا بها أحد أمره رسـول الله ﷺ بفراقها فلما ذكر أنه يحبها أباح له البقاء معها لأن محبته لها محققة ووقوع الفاحشة منها متوهم فلا يصار إلى الضرر العاجل لتوهم الآجل والله سبحانه وتعالى أعلم ، قالوا فأما إذا حصلت توبة فانه يحل التزويج كما قال الإمام أبو محمد بن أبى حاتم رحمه الله حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد عن ابن أبى ذئب قال سمعت شعبة مولى ابن عباس رضى الله عنه قال سمعت ابن عباس وسأله رجل فقال إنى كنت ألم بامرأة آتى منها ما حرم الله عزوجل على فرزق الله عزوجل من ذلك توبة فأردت أن أتزوجها فقال أناس إن الزانى لاينكح إلا زانيه أومشركة فقال ابن عباس ليس هذا فى هذا انكحها فما كان من إثم فعلى وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال ذكر عنده (الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زان أومشرك) قال كان يقال نسختها التى بعدها (وأنكحوا الأيامى منكم) قال كان يقال الأيامى من المسلمين وهكذا رواه أبو عبيد القاسم ابن سلام فى كتاب الناسخ والمنسوخ له عن سعيد بن المسيب ونص على ذلك أيضا الإمام أبو عبدالله محمد إدريس الشافعى

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنه وهى الحرة البالغة العفيفة فاذا كان المقذوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضاً وليس فيه نزاع بين العلماء فان أقام القاذف بينة على صحة ماقاله درأ عنه الحد ولهذا قال تعالى (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون) فأوجب على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام (أحدها) أن يجلد ثمانين جلدة (الثانى) أنه ترد شهادته أبداً (الثالث) أن يكون فاسقاً ليس بعدل لا عندالله ولا عند الناس، ثم قال تعالى (الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) الآية . واختلف العلماء فى هذا الاستثناء هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ويبقى مردود الشهادة دائما وإن تاب أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ وأما الجلد فقد ذهب وانقضى سواء تاب أو أصر ولا حكم له بعـد ذلك بلا خلاف فذهب الإمام مالك وأحمد الشافعى إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته وارتفع عنه حكم الفسق ونص عليه سعيد بن

المسيب سيد التابعين وجماعة من السلف أيضاً ، وقال الإمام أبو حنيفة إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط فيرتفع الفسق بالتوبة ويبقى مردود الشهادة أبداً وممن ذهب إليه من السلف القاضي شريح وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومكحول وعبد الرحمن بن زيد بن جابر . وقال الشعبي والضحاك لا تقبل شهادته وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان فحينئذ تقبل شهادته والله أعلم

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها فرج للازواج وزيادة مخرج إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدعى عليها بما رماها به فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين أي فيما رماها به من الزنا (والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء وحرمت عليه أبداً ويعطيها مهرها ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين أي فيما رماها به (والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) ولهذا قال (ويدرأ عنها العذاب) يعني الحد (أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) فخصها بالغضب كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور وهي تعلم صدقه فيما رماها به ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه ، ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق فقال تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) أي لحرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم (وأن الله تواب) أي على عباده ، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة (حكيم) فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه ، وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية وذكر سبب نزولها وفيمن نزلت فيه من الصحابة . قال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً) قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار رضي الله عنه أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ » فقالوا يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته . فقال سعد والله يا رسول الله إني لأعلم إنها لحق وأنها من الله ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته — قال فما لبثوا إلا يسيراً — حتى جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم فجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلا فرأى بعينيه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلا فرأيت بعيني وسمعت بأذني فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه واجتمعت عليه الأنصار وقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة الآن يضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس فقال هلال والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً . وقال هلال يا رسول الله فاني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله

يعلم إنى لصادق . فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم الوحى ، وكان إذا أنزل عليه الوحى عرفوا ذلك فى تربد وجهه يعنى فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحى فنزلت (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله) الآية فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً » فقال هلال قد كنت أرجو ذلك من ربى عز وجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أرسلوا إليها» فأرسلوا إليها فجاءت فتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما فذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا فقال هلال والله يا رسول الله لقد صدقت عليها فقالت كذب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاعنوا بينهما » فقيل لهلال اشهد فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فلما كانت الخامسة قيل له يا هلال اتق الله فان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب فقال والله لا يعذبنى الله عليها كما لم يجلدنى عليها فشهد فى الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ثم قيل للمرأة اشهدى أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين وقيل لها عند الخامسة اتقى الله فان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لا أفضح قومى فشهدت فى الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقضى أن لا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد ، وقضى أن لا بيت لها عليه ولا قوت لها من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها وقال « إن جاءت به أصيهب أريشح حمش الساقين فهو لهلال وإن جاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الأليتين فهو الذى رميت به » فجاءت به أورق جعدا جمالياً خدلج الساقين سابغ الأليتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا الأيمان لكان لى ولها شأن » قال عكرمة فكان بعد ذلك أميراً على مصر وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب ، ورواه أبو داود عن الحسن بن على عن يزيد بن هارون به نحوه مختصراً ، ولهذا الحديث شواهد كثيرة فى الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة ، فمنها ماقال البخارى: حدثنى محمد بن بشار حدثنا ابن أبى عدى عن هشام بن حسان حدثنى عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال النبى صلى الله عليه وسلم « البينة أوحد فى ظهرك » فقال يارسول الله إذا أرى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول « البينة وإلا حد فى ظهرك » فقال هلال والذى بعثك بالحق إنى لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد فنزل جبريل وأنزل عليه (والذين يرمون أزواجهم — فقرأ حتى بلغ — إن كان من الصادقين) فانصرف النبى صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهما فجاء هلال فشهد والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب» ثم قامت فشهدت ، فلما كان فى الخامسة وقفوها وقالوا إنها موجبة قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت فقال النبى صلى الله عليه وسلم « أبصروها فان جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء » فجاءت به كذلك فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لولا مامضى من كتاب الله لكان لى ولها شأن » انفرد به البخارى من هذا الوجه، وقد رواه من غير وجه عن ابن عباس وغيره ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن منصور الزيادى حدثنا يونس بن محمد حدثنا صالح وهو ابن عمر حدثنا عاصم يعنى ابن كليب عن أبيه حدثنى ابن عباس قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمى امرأته برجل فكره ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يردده حتى أنزل الله تعالى (والذين يرمون أزواجهم) فقرأ حتى فرغ من الآيتين فأرسل إليهما فدعاها فقال : « إن الله تعالى قد أنزل فيكما » فدعا الرجل فقرأ عليه فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ثم أمر به فأمسك على فيه فوعظه فقال له «كل شىء أهون عليه من لعنة الله» ثم أرسله فقال «لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين» ثم دعاها فقرأ عليها فشهدت أربع شهادات بالله إنه من الكاذبين ثم أمر بها فأمسك على فيها فوعظها وقال : «ويحك كل شىء أهون من غضب الله » ثم أرسلها فقالت : غضب الله عليها إن كان من الصادقين . فقال رسول الله

ﷺ « أما والله لأقضين بينكما قضاء فصلا » قال فولدت فما رأيت مولوداً بالمدينة أكثر منه فقال « إن جاءت به لكذا وكذا فهو كذا ، وإن جاءت به لكذا وكذا فهو لكذا » فجاءت به يشبه الذى قذفت به : وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان قال : سمعت سعيد بن جبير قال سئلت عن الملاعنين أيفرق بينهما فى إمارة ابن الزبير فما دريت ما أقول فقمت من مكانى إلى منزل ابن عمر فقلت يا أبا عبد الرحمن الملاعنان أيفرق بينهما ؟ فقال سبحان الله إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال يارسول الله أرأيت الرجل يرى امرأته على فاحشة فإن تكلم تكلم بأمر عظيم وإن سكت سكت على مثل ذلك فسكت فلم يجبه فلما كان بعد ذلك أتاه فقال الذى سألتك عنه قد ابتليت به فأنزل الله تعالى هذه الآيات فى سورة النور (والذين يرمون أزواجهم) حتى بلغ (أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) فبدأ بالرجل فوعظه وذكره وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقال: والذى بعثك بالحق ما كذبت ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكرها وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقالت المرأة : والذى بعثك بالحق إنه لكاذب. قال فبدأ بالرجل فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ثم ثنى بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ثم فرق بينهما رواه النسائى فى التفسير من حديث عبد الملك بن أبى سليمان به وأخرجاه فى الصحيحين من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن حماد حدثنا أبو عوانة عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله قال ، كنا جلوسا عشية الجمعة فى المسجد فقال رجل من الأنصار : أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلا إن قتله قتلتموه وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ ، والله لأن أصبحت صحيحا لأسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فسأله فقال يارسول الله إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلا إن قتله قتلتموه وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ اللهم احكم ، قال فنزلت آية اللعان فكان ذلك الرجل أول من ابتلى به . انفرد باخراجه مسلم فرواه من طرق عن سليمان بن مهران الأعمش به وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا أبو كامل حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن سهل بن سعد قال جاء عويمر إلى عاصم بن عدى فقال له سل رسول الله ﷺ أرأيت رجلا وجد رجلا مع امرأته فقتله أيقتل به أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ فعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل قال فلقيه عويمر فقال : ماصنعت ؟ قال ما صنعت انك لم تأتنى بخير ، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاب المسائل فقال عويمر والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأسألنه . فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيها . قال: فدعابهما ولاعن بينهما . قال عويمر ان انطلقت بها يارسول الله لقد كذبت عليها . قال: ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ فصارت سنة المتلاعنين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبصروها فان جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين فلا أراه الا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كانه وحرة فلا أراه إلا كاذبا » فجاءت به على النعت المكروه . أخرجاه فى الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذى ورواه البخارى أيضا من طرق عن الزهرى به فقال حدثنا سليمان بن داود أبو الربيع حدثنا فليح عن الزهرى عن سهل بن سعد أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله أرأيت رجلا رأى مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل ؟ فأنزل الله تعالى فيهما ما ذكر فى القرآن من التلاعن فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد قضى فيك وفى امرأتك » قال فتلاعنا وأنا شاهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ففارقها فكانت سنة أن يفرق بين المتلاعنين ، وكانت حاملا فأنكر حملها وكان ابنها يدعى اليها . ثم جرت السنة فى الميراث أن يرثها وترث منه مافرض الله لها . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا إسحق بن الضيف حدثنا النضر بن شميل حدثنا يونس بن أبى إسحق عن أبيه عن زيد بن بتيع عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر « لو رأيت مع أم رومان رجلا ما كنت فاعلا ؟ » قال كنت والله فاعلا به شرا، قال « فأنت ياعمر ؟ » قال كنت والله فاعلا كنت أقول لعن الله الأعجز فإنه خبيث . قال فنزلت (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) ثم قال لانعلم أحدا أسنده إلا النضر بن شميل عن يونس

ابن إسحق ثم رواه من حديث الثورى عن أبى إسحق عن زيد بن بتيع مرسلا فالله أعلم ، وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا مسلم بن أبى مسلم الجرمى حدثنا مخلد بن الحسين عن هشام عن ابن سيرين عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لأول لعان كان فى الإسلام أن شريك بن سحماء قذفه هلال بن أمية بامرأته فرفعته إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ « أربعة شهود وإلا فحد فى ظهرك » فقال يارسول الله إن الله يعلم إنى لصادق ولينزلن الله عليك مايبرىء به ظهرى من الجلد فأنزل الله آية اللعان (والذين يرمون أزواجهم) إلى آخر الآية قال فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال « اشهد بالله إنك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا » فشهد بذلك أربع شهادات ثم قال له فى الخامسة « ولعنة الله عليك إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا » ففعل ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال « قومى فاشهدى بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا » فشهدت بذلك أربع شهادات ثم قال لها فى الخامسة « وغضب الله عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا » قال فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتة حتى ظنوا أنها ستعترف ثم قالت لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت على القول ففرق رسول الله ﷺ بينهما وقال « انظروا فان جاءت به جعدا حمش الساقين فهو لشريك بن سحماء وإن جاءت به أبيض سبطا قصير العينين فهو لهلال بن أمية » فجاءت به جعدا حمش الساقين فقال رسول الله ﷺ « لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لى ولها شأن »

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

هذه العشر الآيات كلها نزلت فى شأن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التى غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول ﷺ فقال تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) أى جماعة منكم يعنى ماهو واحد ولا اثنان بل جماعة فكان المقدم فى هذه اللعنة عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك فى أذهان بعض المسلمين فتكلموا به وجوزه آخرون منهم وبقى الأمر كذلك قريبا من شهر حتى نزل القرآن ، وبيان ذلك فى الأحاديث الصحيحة . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى قال أخبرنى سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث[1] عائشة زوج النبى ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله تعالى ، وكلهم قد حدثنى بطائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصا ، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذى حدثنى عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضا : ذكروا أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ، قالت عائشة رضى الله عنها فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى وخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما نزل الحجاب فأنا أحمل فى هودجى وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعير الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه ، قالت وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوننى

(١) كذا فى الأميرية ، وفى البغوى عن عائشة .

فيرجعون إلى ، فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عيناى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم فأتانى فعرفنى حين رآنى وقد كان رآنى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى والله ما كلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطىء على يدها فركبتها فانطلق يقودبى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة، فهلك من هلك فى شأنى وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى ابن سلول ، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهرا والناس يفضون فى قول أهل الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم يقول « كيف تيكم؟ » فذلك الذى يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت وخرجت معى أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه فى البرية وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها فى بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهى بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب[1] فأقبلت أنا وابنة أبى رهم أم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئسما قلت تسبين رجلا شهد بدرا ؟ فقالت أى هنتاه ألم تسمعى ما قال ؟ قلت وماذا قال ؟ قالت فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضى فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول الله ﷺ فسلم ثم قال « كيف تيكم ؟ » فقلت له أتأذن لى أن آتى أبوى ، قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أبوى فقلت لأمى يا أمتاه لماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت أى بنية هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت فقلت سبحان الله وقد تحدث الناس بها فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى ، قالت فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله قالت فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود ، فقال أسامة يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيرا . وأما على بن أبى طالب فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر . قالت فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال « أى بريرة هل رأيت من شىء يريبك من عائشة » فقالت له بريرة : والذى بعثك بالحق إن رأيت منها أمرا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبى ابن سلول ، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر « يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلى إلا معى » فقام سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه فقال أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافق ، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول صلى الله عليه وسلم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى قالت فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى إذ استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس ، قالت ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل ، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى شىء

(١) فى البغوى : ابن المطلب

قالت فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال « أما بعد يا عائشة فانه قد بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فان العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه » قالت فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبى أجب عنى رسول الله فقال والله ما أدرى ما أقول لرسول ﷺ فقلت لأمى أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن والله لقد علمت لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لاتصدقونى ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أنى منه بريئه لتصدقنى فوالله ما أجدلى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشى قالت وأنا والله أعلم حينئذ أنى بريئة وأن الله تعالى مبرئى ببراءتى ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها قالت فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولاخرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو فى يوم شاة من ثقل القول الذى أنزل عليه : قالت فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال « أبشرى يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك » قالت فقالت لى أمى قومى إليه فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذى أنزل براءتى وأنزل الله عز وجل (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) العشر الآيات كلها ، فلما أنزل الله هذا فى براءتى قال أبوبكر رضى الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة فأنزل الله تعالى (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى — إلى قوله — ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فقال أبو بكر : بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه . وقال والله لا أنزعها منه أبداً . قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش زوج النبى صلى الله عليه وسلم عن أمرى فقال « يا زينب ماذا علمت أورأيت ؟ » فقالت يارسول الله أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت إلا خيراً قالت عائشة وهى التى كانت تسامينى من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فعصمها الله تعالى بالورع . وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها فهلكت فيمن هلك . قال ابن شهاب فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث الزهرى وهكذا رواه ابن إسحاق عن الزهرى كذلك قال : وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم الأنصارى عن عمرة أخبرنى أبى عن عائشة بنحو ما تقدم والله أعلم . ثم قال البخارى وقال أبو أسامة عن هشام بن عروة قال أخبرنى أبى عن عائشة رضى الله عنها قالت لما ذكر من شأنى الذى ذكر وما علمت به . قام رسول الله صلى الله عليه فى خطيبا فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله . ثم قال أما بعد أشيروا علىّ فى أناس أبنوا أهلى وايم الله ماعلمت على أهلى إلا خيراً وما علمت على أهلى من سوء وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط ولا يدخل بيتى قط إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : يارسول الله ائذن لنا أن نضرب أعناقهم فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل فقال كذبت أما والله لوكانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شر فى المسجد وما علمت فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح فعثرت فقالت تعس مسطح فقلت لها أى أم تسبين ابنك ؟ فسكتت ثم عثرت الثانية فقالت تعس مسطح فقلت لها أى أم تسبين ابنك ؟ ثم عثرت الثالثة فقالت تعس مسطح فانتهرتها فقالت والله ما أسبه إلا فيك فقلت فى أى شأنى ؟ قالت فبقرت لى الحديث فقلت وقد كان هذا ؟ قالت نعم والله فرجعت إلى بيتى كأن الذى خرجت له لا أجد منه قليلا ولا كثيراً ووعكت وقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم

أرسلنى إلى بيت أبى فأرسل معى الغلام فدخلت الدار فوجدت أم رومان فى السفل وأبا بكر فوق البيت يقرأ فقالت أم رومان ماجاء بك يابنية فأخبرتها وذكرت لها الحديث وإذا هو لم يبلغ منها مثل الذى بلغ منى فقالت يابنية خفضى عليك الشأن فإنه والله لقل ما كانت امرأة قط حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدنها ، وقيل فيها فقلت وقد علم به أبى ؟ قالت نعم قلت ورسول الله ﷺ ؟ قالت نعم ورسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعبرت وبكيت فسمع أبو بكر صوتى وهو فوق البيت يقرأ فنزل فقال لأمى ما شأنها قالت بلغها الذى ذكر من شأنها ففاضت عيناه رضى الله عنه فقال أقسمت عليك يابنية إلا رجعت إلى بيتك فرجعت ، ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتى فسأل عنى خادمتى فقالت يارسول الله لا والله ماعلمت عليها عيبا إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها ، وانتهرها بعض أصحابه فقال اصدقى رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به فقالت سبحان الله والله ماعلمت عليها إلا مايعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر ، وبلغ الأمر ذلك الرجل الذى قيل له ، فقال سبحان الله والله ما كشفت كنف أنثى قط . قالت عائشة رضى الله عنها فقتل شهيدا فى سبيل الله قالت وأصبح أبواى عندى فلم يزالا حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صلى العصر ثم دخل وقد اكتنفنى أبواى عن يمينى وعن شمالى فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال « أما بعد ياعائشة إن كنت قارفت سوءا أو ظلمت فتوبى إلى الله فان الله يقبل التوبة عن عباده » قالت وقد جاءت امرأة من الأنصار فهى جالسة بالباب فقلت ألا تستحى من هذه المرأة أن تذكر شيئاً فوعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفت إلى أبى فقلت له أجب رسول الله ﷺ قال فماذا أقول ؟ فالتفت إلى أمى فقلت أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ماذا أقول ؟ فلما لم يجيباه تشهدت فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت: أما بعد فو الله إن قلت لكم إنى لم أفعل والله عز وجل يشهد إنى لصادقة ماذاك بنافعى عندكم لقد تكلمتم به وأشربته قلوبكم ، وإن قلت لكم إنى قد فعلت والله يعلم أنى لم أفعل لتقولن قدباءت به على نفسها وإنى والله ما أجدلى ولكم مثلا والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه إلا أبايوسف حين قال (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من ساعته فسكتنا فرفع عنه وإنى لأتبين السرور فى وجهه وهو يمسح جبينه ويقول « أبشرى ياعائشة فقدأنزل الله براءتك » قالت وكنت أشد ما كنت غضباً فقال لى أبواى قومى اليه فقلت لا والله لا أقوم اليه ولا أحمده ولا أحمدكما ولكن أحمد الله الذى أنزل براءتى لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه ، وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً ، وأما أختها حمنة بنت جحش فهلكت فيمن هلك ، وكان الذى يتكلم به مسطح وحسان بن ثابت والمنافق عبد الله بن أبى ابن سلول وهوالذى كان يستوشيه ويجمعه وهو الذى تولى كبره منهم هو وحمنة ، قالت فحلف أبوبكر أن لا ينفع مسطحا بنافعة أبداً فأنزل الله تعالى (ولا يأتل أولو الفضل منكم) يعنى أبا بكر (والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين) يعنى مسطحا إلى قوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فقال أبوبكر بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا . وعادله بما كان يصنع . هكذا رواه البخارى من هذا الوجه معلقا بصيغة الجزم عن أبى أسامة حماد بن أسامة أحد الأئمة الثقات . وقد رواه ابن جرير فى تفسيره عن سفيان بن وكيع عن أبى أسامة مطولا به مثله أو نحوه . ورواه ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الأشج عن أبى أسامة ببعضه وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم أخبرنا عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت لما نزل عذرى من السماء جاءنى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرنى بذلك فقلت : بحمد الله لا بحمدك . وقال الإمام أحمد حدثنا ابن أبى عدى عن محمد بن إسحق عن عبد الله بن أبى بكر عن عمرة أيضاً عن عائشة قالت: لما نزل عذرى قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدهم ورواه أهل السنن الأربعة . وقال الترمذى هذا حديث حسن ووقع عند أبى داود تسميتهم حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش . فهذه طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى المسانيد والصحاح والسنن وغيرها . وقد روى من حديث أمها أم رومان رضى الله

عنها فقال الإمام أحمد حدثنا على بن عاصم أخبرنا حصين عن أبى وائل عن مسروق عن أم رومان قالت بينا أنا عند عائشة إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله بابنها وفعل، فقالت عائشة ولم ؟ قالت إنه كان فيمن حدث الحديث قالت وأى الحديث قالت كذا وكذا قالت وقد بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت نعم قالت وبلغ أبا بكر ؟ قالت نعم فخرت عائشة رضى الله مغشيا عليها فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض قالت فقمت فدثرتها قالت فجاء النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما شأن هذه ؟» فقلت يارسول الله أخذتها حمى بنافض قال « فلعله فى حديث تحدث به » قالت فاستوت عائشة قاعدة فقالت والله لئن حلفت لكم لاتصدقونى ولئن اعتذرت اليكم لاتعذرونى فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه حين قال (فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) قالت فخرج رسول الله ﷺ وأنزل الله عذرها فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر فدخل فقال ياعائشة « إن الله تعالى قد أنزل عذرك » فقالت بحمد الله لا بحمدك فقال لها أبو بكر تقولين هذا لرسول الله ﷺ قالت نعم قالت وكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعوله أبو بكر فحلف أن لا يصله فأنزل الله (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة) إلى آخر الآية فقال أبوبكر بلى فوصله . تفرد به البخارى دون مسلم من طريق حصين ، وقدرواه البخارى عن موسى بن إسماعيل عن أبى عوانة وعن محمد بن سلام عن محمد بن فضيل كلاهما عن حصين به وفى لفظ أبى عوانة حدثتنى أم رومان وهذا صريح فى سماع مسروق منها وقد أنكر ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادى وذلك لما ذكره أهل التاريخ أنها ماتت فى زمن النبى ﷺ قال الخطيب وقد كان مسروق يرسله فيقول سئلت أم رومان ويسوقه فلعل بعضهم كتب سئلت بألف اعتقد الراوى أنها سألت فظنه متصلا قال الخطيب وقد رواه البخارى كذلك ولم تظهر له علته كذا قال والله أعلم . ورواه بعضهم عن مسروق عن عبد الله ابن مسعود عن أم رومان فالله أعلم ، فقوله تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك) أى الكذب والبهت والافتراء (عصبة) أى جماعة منكم (لاتحسبوه شرا لكم) أى يا آل أبى بكر (بل هو خير لكم) أى فى الدنيا والآخرة لسان صدق فى الدنيا ورفعة منازل فى الآخرة وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حيث أنزل الله براءتها فى القرآن العظيم (الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) الآية ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضى الله عنه وعنها وهى فى سياق الموت قال لها أبشرى فإنك زوجة رسول الله ﷺ وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك ونزلت براءتك من السماء . وقال ابن جرير فى تفسيره حدثنى محمد بن عثمان الواسطى حدثنا جعفر ابن عون عن المعلى بن عرفان عن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت عائشة وزينب رضى الله عنهما فقالت زينب أنا التى نزل تزويجى من السماء وقالت عائشة أنا التى نزل عذرى فى كتاب الله حين حملنى صفوان بن المعطل على الراحلة فقالت لها زينب ياعائشة ماقلت حين ركبتها ؟ قالت : قلت حسبى الله ونعم الوكيل قالت قلت كلمة المؤمنين وقوله تعالى (لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم) أى لكل من تكلم فى هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بشىء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب (والذى تولى كبره منهم) قيل ابتدأ به وقيل الذى كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه (له عذاب عظيم) أى على ذلك ، ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبى ابن سلول قبحه الله تعالى ولعنه وهو الذى تقدم النص عليه فى الحديث وقال ذلك مجاهد وغير واحد ، وقيل بل المراد به حسان بن ثابت وهو قول غريب ولولا أنه وقع فى صحيح البخارى ماقيد يدل على إيراد ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر وأحسن مآثره أنه كان يذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعره وهو الذى قال له رسول الله ﷺ « هاجهم وجبريل معك » وقال الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال كنت عند عائشة رضى الله عنها فدخل حسان بن ثابت فأمرت فألقى له وسادة فلما خرج قلت لعائشة ماتصنعين بهذا ؟ يعنى يدخل عليك وفى رواية قيل لها أتأذنين لهذا يدخل عليك وقد قال الله (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) ؟ قالت وأى عذاب أشد من العمى وكان قد ذهب بصره لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب

العظيم ثم قالت إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ وفى رواية أنه أنشدها عند ما دخل عليها شعرا يمتدحها به فقال

حصان رزان ما تزن بريبه * وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقال أما أنت فلست كذلك ، وفى رواية : لكنك لست كذلك وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن قزعة حدثنا سلمة بن علقمة حدثنا داود عن عامر عن عائشة أنها قالت ما سمعت بشعر أحسن من شعر حسان ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة قوله لأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب

هجوت محمدا فأجبت عنه * وعند الله فى ذاك الجزاء
فان أبى ووالده وعرضى * لعرض محمد منكم وقاء
أتشتمه ولست له بكفء ؟ * فشركما لخيركما الفداء
لسانى صارم لا عيب فيه * وبحرى لا تكدره الدلاء

فقيل يا أم المؤمنين أليس هذا لغوا ؟ قالت لا إنما اللغو ما قيل عند النساء ، قيل أليس الله يقول (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) قالت أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف ؟ تعنى الضربة التى ضربه إياها صفوان بن المعطل السلمى حين بلغه عنه أنه يتكلم فى ذلك فعلاه بالسيف وكاد أن يقتله

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين فى قصة عائشة رضى الله عنها حين أفاض بعضهم فى ذلك الكلام السوء وماذكر من شأن الافك فقال تعالى (لولا) يعنى هلا (إذ سمعتموه) أى ذلك الكلام الذى رميت به أم المؤمنين رضى الله عنها (ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا) أى قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فان كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى . وقد قيل إنها نزلت فى أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى وامرأته رضى الله عنهما كما قال الإمام محمد بن إسحق بن يسار عن أبيه عن بعض رجال بنى النجار أن أبا أيوب خالد بن زيد الأنصارى قالت له امرأته أم أيوب يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة رضى الله عنها ؟ قال نعم وذلك الكذب أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت لا والله ما كنت لأفعله قال فعائشة والله خير منك ، قال فلما نزل القرآن ذكر الله عز وجل من قال فى الفاحشة ما قال من أهل الافك (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) وذلك حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال تعالى (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون) الآية أى كما قال أبو أيوب وصاحبته ، وقال محمد بن عمر الواقدى حدثنى ابن أبى حبيب عن داود بن الحصين عن أبى سفيان عن أفلح مولى أبى أيوب أن أم أيوب قالت لأبى أيوب : ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة ؟ قال بلى وذلك الكذب أفكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك ، قالت لا والله قال فعائشة والله خير منك : فلما نزل القرآن وذكر أهل الافك قال الله عز وجل (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين) يعنى أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال ويقال إنما قالها أبى بن كعب ، وقوله تعالى (ظن المؤمنون) الخ أى هلا ظنوا الخير فان أم المؤمنين أهله وأولى به . هذا ما يتعلق بالباطن ، وقوله (وقالوا) أى بألسنتهم هذا إفك مبين) أى كذب ظاهر على أم المؤمنين رضى الله عنها فان الذى وقع لم يكن ريبة وذلك أن مجىء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل فى وقت الظهيرة والجيش بكماله يشاهدون ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رءوس الأشهاد بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستورا ، فتعين أن ماجاء به أهل الافك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت والقول الزور والرعونة الفاحشة الفاجرة ، والصفقة الخاسرة ، قال الله تعالى (لولا) أى هلا (جاءوا عليه) أى على ما قالوه (بأربعة شهداء)

يشهدون على صحة ما جاءوا به (فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) أى فى حكم الله كاذبون فاجرون

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾

يقول تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة) أيها الخائضون فى شأن عائشة بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه فى الدنيا وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة (لمسكم فيما أفضتم فيه) من قضية الافك (عذاب عظيم) وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش ، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبى ابن سلول وأضرابه فليس أولئك مرادين فى هذه الآية لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه ، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه : ثم قال تعالى (إذ تلقونه بألسنتكم) قال مجاهد وسعيد بن جبير أى يرويه بعضكم عن بعض يقول هذا سمعته من فلان وقال فلان كذا وذكر بعضهم كذا ، وقرأ آخرون (إذ تلقونه بألسنتكم) وفى صحيح البخارى عن عائشة أنها كانت تقرؤها كذلك وتقول هو من ولق اللسان يعنى الكذب الذى يستمر صاحبه عليه ، تقول العرب : ولق فلان فى السير إذا استمر فيه والقراءة الأولى أشهر وعليها الجمهور ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة ، قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن نافع عن ابن عمر عن عائشة أنها كانت تقرأ (إذ تلقونه) وتقول هى ولق القول قال ابن أبى مليكة : هى أعلم به من غيرها ، وقوله تعالى (وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) أى تقولون مالا تعلمون ، ثم قال تعالى (وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) أى تقولون ما تقولون فى شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيرا سهلا ولو لم تكن زوجة النبى ﷺ لما كان هينا فكيف وهى زوجة النبى الأمى خاتم الأنبياء وسيد المرسلين فعظيم عند الله أن يقال فى زوجة نبيه ورسوله ما قيل ، فان الله سبحانه وتعالى يغار لهذا وهو سبحانه وتعالى لا يقدر على زوجة نبى من الأنبياء ذلك حاشا وكلا ، ولما لم يكن ذلك فكيف يكون هذا فى سيدة نساء الأنبياء وزوجة سيد ولد آدم على الاطلاق فى الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى (وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) وفى الصحيحين « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدرى ما تبلغ يهوى بها فى النار أبعد مما بين السماء والأرض » وفى رواية « لا يلقى لها بالا »

﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

هذا تأديب آخر بعد الأول الآمر بظن الخير أى إذا ذكر مالا يليق من القول فى شأن الخيرة فأولى ينبغى الظن بهم خيرا ، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك ثم إن علق بنفسه شىء من ذلك وسوسة أو خيالا فلا ينبغى أن يتكلم به فان رسول الله ﷺ قال « إن الله تعالى تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » أخرجاه فى الصحيحين ، وقال الله تعالى (ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا) أى ما ينبغى لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد (سبحانك هذا بهتان عظيم) أى سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله ، ثم قال تعالى (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً) أى ينهاكم الله متوعدا أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً أى فيما يستقبل ولهذا قال (إن كنتم مؤمنين) أى إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه وتعظمون رسوله صلى الله عليه وسلم فأما من كان متصفاً بالكفر فله حكم آخر ، ثم قال تعالى (ويبين الله لكم الآيات) أى يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية (والله عليم حكيم) أى عليم بما يصلح عباده حكيم فى شرعه وقدره

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئا من الكلام السيء فقام بذهنه شيء منه وتكلم به فلا يكثر منه ولا يشيعه ويذيعه فقد قال تعالى (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم) أى يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح (لهم عذاب أليم فى الدنيا) أى بالحد ، وفى الآخرة بالعذاب (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) أى فردوا الأمور إليه ترشدوا وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن بكير حدثنا ميمون بن موسى المرئى حدثنا محمد بن عباد المخزومى عن ثوبان عن النبى ﷺ قال « لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ، ولا تطلبوا عوراتهم فانه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول الله تعالى (ولو لا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم) أى لولا هذا لكان أمر آخر ولكنه تعالى رءوف بعباده رحيم بهم فتاب على من تاب إليه من هذه القضية وطهر من طهر منهم بالحد الذى أقيم عليم ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) يعنى طرائقه ومسالكه وما يأمر به (ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر) هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (خطوات الشيطان) عمله وقال عكرمة نزغاته وقال قتادة كل معصية فهى من خطوات الشيطان ، وقال أبو مجلز : النذور فى المعاصى من خطوات الشيطان ، وقال مسروق سأل رجل ابن مسعود فقال : إنى حرمت أن آكل طعاماً وسماه فقال هذا من نزغات الشيطان كفر عن يمينك وكل ، وقال الشعبى فى رجل نذر ذبح ولده هذا من نزغات الشيطان وأفتاه أن يذبح كبشاً وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا حسان بن عبد الله المصرى حدثنا السرى بن يحيى عن سليمان التيمى عن أبى رافع قال غضبت على امرأتى فقالت هى يوما يهودية ويوما نصرانية وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك ، فأتيت عبد الله بن عمر فقال : إنما هذه من نزغات الشيطان وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهى يومئذ أفقه امرأة بالمدينة وأتيت عاصم بن عمر فقال مثل ذلك . ثم قال تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) أى لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكى النفوس من شركها وفجورها ودنسها ومافيها من أخلاق رديئة كل بحسبه لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرا (ولكن الله يزكى من يشاء) أى من خلقه ويضل من يشاء ويرديه فى مهالك الضلال والغى ، وقوله (والله سميع) أى سميع لأقوال عباده (عليم) بمن يستحق منهم الهدى والضلال

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى (ولا يأتل) من الألية وهى الحلف أى لا يحلف (أولو الفضل منكم) أى الطول والصدقة والإحسان (والسعة) أى الجدة (أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله) أى لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم

المساكين والمهاجرين . وهذا فى غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ولهذا قال تعالى (و ليعفوا وليصفحوا) أى عما تقدم منهم من الاساءة والأذى ؟ وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم ، وهذه الآية نزلت فى الصديق رضى الله عنه حين حلف أن لاينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبداً بعد ما قال فى عائشة ما قال كما تقدم فى الحديث فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة وطابت النفوس المؤمنة واستقرت وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه ـ شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة يعطف الصديق على قريبه ونسيبه وهو مسطح بن أثاثة فانه كان ابن خالة الصديق وكان مسكينا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضى الله عنه ، وكان من المهاجرين فى سبيل الله وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها . وكان الصديق رضى الله عنه معروفا بالمعروف ، له الفضل والأيادى على الأقارب والأجانب فلما نزلت هذه الآية إلى قوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) الآية فان الجزاء من جنس العمل فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك وكما تصفح يصفح عنك ، فعند ذلك قال الصديق : بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال والله لا أنزعها منه أبداً فى مقابلة ما كان قال : والله لا أنفعه بنافعة أبداً . فلهذا كان الصديق هو الصديق رضى الله عنه وعن بنته

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات خرج مخرج الغالب المؤمنات فأمهات المؤمنين أولى بالدخول فى هذا من كل محصنة ولا سيما التى كانت سبب النزول وهى عائشة بنت الصديق رضى الله عنهما وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذى ذكر فى هذه الآية فانه كافر لأنه معاند للقرآن ، وفى بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهى والله أعلم وقوله تعالى (لعنوا فى الدنيا والآخرة) الآية كقوله (إن الذين يؤذون الله ورسوله) الآية . وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رضى الله عنها فقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبد الله بن حراش عن العوام عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى الآية (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) قال نزلت فى عائشة خاصة وكذا قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال حدثنا أحمد بن عبدة الضبى حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغنى بعد ذلك ، قالت فبينا رسول الله ﷺ جالس عندى إذ أوحى إليه قالت وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السبات وإنه أوحى إليه وهو جالس عندى ثم استوى جالسا يمسح على وجهه وقال « يا عائشة أبشرى » قالت فقلت بحمد الله لابحمدك فقرأ (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ـ حتى بلغ ـ أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) هكذا أورده وليس فيه أن الحكم خاص بها وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها وإن كان الحكم يعمها كغيرها ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله والله أعلم وقال الضحاك وأبو الجوزاء وسلمة بن نبيط : المراد بها أزواج النبى خاصة دون غيرهن من النساء وقال العوفى عن ابن عباس فى الآية (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) الآية يعنى أزواج النبى ﷺ رماهن أهل النفاق فأوجب الله لهم اللعنة والغضب وباءوا بسخط من الله فكان ذلك فى أزواج النبى ﷺ ثم نزل بعد ذلك (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ـ إلى قوله ـ فان الله غفور رحيم) فأنزل الله الجلد والتوبة فالتوبة تقبل والشهادة ترد . وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا هشيم

أخبرنا العوام بن حوشب عن شيخ من بنى أسد عن ابن عباس قال فسر سورة النور فلما أتى على هذه الآية (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) الآية قال فى شأن عائشة وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم وهى مبهمة وليست لهم توبة ثم قرأ (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء — إلى قوله — إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) الآية قال فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة قال فهم بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه من حسن ما فسر به سورة النور. فقوله وهى مبهمة أى عامة فى تحريم قذف كل محصنة ولعنته فى الدنيا والآخرة وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هذا فى عائشة ومن صنع مثل هذا أيضا اليوم فى المسلمات فله ما قال الله تعالى ولكن عائشة كانت أماً فى ذلك . وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح ويعضد العموم ماروواه ابن أبى حاتم حدثنا أحمد ابن عبد الرحمن ابن أخى وهب حدثنى عمى حدثنا سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبى الغيث عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اجتنبوا السبع الموبقات » قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » أخرجاه فى الصحيحين من حديث سليمان بن بلال به ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا محمد بن عمر أبو خالد الطائى المحرمى حدثنى أبى ح وحدثنا أبو شعيب الحرانى حدثنا جدى أحمد بن أبى شعيب حدثنى موسى ابن أعين عن ليث عن أبى إسحق عن صلة بن زفر عن حذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة » وقوله تعالى (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو يحيى الرازى عن عمرو بن أبى قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال إنهم يعنى المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً وروى ابن أبى حاتم وابن جرير أيضاً حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فيجحد ويخاصم فيقال له هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا فيقال أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا فيقال احلفوا فيحلفون ثم يصمهم الله فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ثم يدخلهم النار » وقال ابن أبى حاتم أيضاً حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبى شيبة الكوفى حدثنا منجاب بن الحارث التميمى حدثنا أبو عامر الأسدى حدثنا سفيان بن عبيد المكتب عن فضيل بن عمرو الفقيمى عن الشعبى عن أنس بن مالك قال كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال : «أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم قال « من مجادلة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول بلى فيقول لا أجيز على شاهداً إلا من نفسى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام عليك شهودا فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى فتنطق بعمله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل » وقد رواه مسلم والنسائى جميعا عن أبى بكر بن أبى النضر عن أبيه عن عبد الله الأشجعى عن سفيان الثورى به ثم قال النسائى لا أعلم أحدا روى هذا الحديث عن سفيان الثورى غير الأشجعى وهو حديث غريب والله أعلم هكذا قال : وقال قتادة: ابن آدم : والله إن عليك لشهودا غير متهمة من بدنك فراقبهم واتق الله فى سرك وعلانيتك فانه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء والسر عنده علانية فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ولا قوة إلا بالله . وقوله تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) قال ابن عباس (دينهم) أى حسابهم وكل ما فى القرآن دينهم أى حسابهم ، وكذا قال غير واحد ، ثم إن قراءة الجمهور بنصب الحق على أنه صفة لدينهم، وقرأ مجاهد بالرفع على أنه نعت الجلالة ، وقرأها بعض السلف فى مصحف أبى بن كعب : يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، وقوله (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) أى وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذى لا جور فيه

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

قال ابن عباس : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول . والطيبات من القول للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من القول ـ قال ـ ونزلت فى عائشة وأهل الافك وهكذا روى عن مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصرى وحبيب بن أبى ثابت والضحاك واختاره ابن جرير ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة من كلام هم أولى به وهى أولى بالبراءة والنزاهة منهم ولهذا قال تعالى (أولئك مبرءون مما يقولون) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء وهذا أيضا يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم أى ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهى طيبة لأنه أطيب من كل طيب من البشر ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعا ولا قدرا ولهذا قال تعالى (أولئك مبرءون مما يقولون) أى هم بعداء عما يقوله أهل الافك والعدوان (لهم مغفرة) أى بسبب ما قيل فيهم من الكذب (ورزق كريم) أى عند الله فى جنات النعيم ، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنة . قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن مسلم حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد السلام بن حرب عن يزيد بن عبد الرحمن عن الحكم بإسناده إلى يحيى بن الجزار قال : جاء أسير بن جابر إلى عبدالله فقال لقد سمعت الوليد بن عقبة تكلم اليوم بكلام أعجبنى فقال عبد الله إن الرجل المؤمن يكون فى قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل فى صدره ما يستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل عنده يتلها فيضمها إليه وإن الرجل الفاجر يكون فى قلبه الكلمة الخبيثة تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل الذى عنده يتلها فيضمها إليها ثم قرأ عبد الله (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات و الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) الآية ويشبه هذا ماروا ه الإمام أحمد فى المسند مرفوعاً « مثل هذا الذى يسمع الحكمة ثم لا يحدث إلا بشر ما سمع كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم فقال اجزر لى شاة فقال اذهب فخذ بأذن أيها شئت فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم » وفى الحديث الآخر « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها أخذها »

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين وذلك فى استئذان أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا أى يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده ، وينبغى أن يستأذن ثلاث مرات فان أذن له وإلا انصرف كما ثبت فى الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذن له انصرف ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله ابن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له فطلبوه فوجدوه قد ذهب فلما جاء بعد ذلك قال ما أرجعك ؟ قال إنى استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لى وإنى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف » فقال عمر لتأتينى على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربا ، فذهب إلى ملإ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر فقالوا : لا يشهد لك إلا

أصغرنا فقام معه أبو سعيد الخدرى فأخبر عمر بذلك فقال ألهانى عنه الصفق بالأسواق . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا عمر عن ثابت عن أنس أو غيره أن النبى ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال « السلام عليك ورحمة الله » فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ولم يسمع النبى صلى الله عليه وسلم حتى سلم ثلاثا ورد عليه سعد ثلاثا ولم يسمعه فرجع النبى ﷺ فاتبعه سعد فقال : يارسول الله بأبى أنت وأمى ما سلمت تسليمة إلا وهى بأذنى ، ولقد رددت عليك ولم أسمعك وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة ثم أدخله البيت فقرب اليه زبيبا فأكل نبى الله فلما فرغ قال « أكل طعامكم الأبرار . وصلت عليكم الملائكة ، وأفطر عندكم الصائمون » وقد روى أبو داود والنسائى من حديث أبى عمرو الأوزاعى سمعت يحيى بن أبى كثير يقول : حدثنى محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن قيس بن سعد هو ابن عبادة قال : زارنا رسول الله ﷺ فى منزلنا فقال « السلام عليكم ورحمة » فرد سعد ردا خفيا قال قيس: فقلت ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال دعه يكثر علينا من السلام فقال رسول الله ﷺ « السلام عليكم ورحمة الله » فرد سعد ردا خفيا ثم قال رسول الله ﷺ « السلام عليكم ورحمة الله » ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعه سعد فقال يارسول الله إنى كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام . قال فانصرف معه رسول الله ﷺ وأمر له سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله خميصة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وهو يقول « اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » قال ثم أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطعام فلما أراد الانصراف قرب اليه سعد حمارا قد وطىء عليه بقطيفة فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد ياقيس اصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قيس: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اركب » فأبيت فقال « إما أن تركب وإما أن تنصرف » قال فانصرفت وقد روى هذا من وجوه أخر فهو حديث جيد قوى والله أعلم . ثم ليعلم أنه ينبغى للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره لما رواه أبو داود . حدثنا مؤمل بن الفضل الحرانى فى آخرين قالوا حدثنا بقية حدثنا محمد بن عبد الرحمن عن عبدالله بن بشر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول « السلام عليكم، السلام عليكم » وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور ، انفرد به أبو داود . وقال أبو داود أيضا حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير حينئذ قال أبو داود حدثنا أبوبكر بن أبى شيبة حدثنا حفص عن الأعمش عن طلحة عن هزيل قال جاء رجل قال عثمان : سعد فوقف على باب النبى صلى الله عليه وسلم يستأذن فقام على الباب قال عثمان مستقبل الباب فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « هكذا عنك ـ أو هكذا ـ فإنما الاستئذان من النظر » وقد رواه أبو داود الطيالسى عن سفيان الثورى عن الأعمش عن طلحة بن مصرف عن رجل عن سعد عن النبى صلى الله عليه وسلم رواه أبوداود من حديثه ، وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح » وأخرج الجماعة من حديث شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فى دين كان على أبى فدققت الباب فقال « من ذا ؟ » فقلت أنا قال « أنا أنا » كأنه كرهه وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لايعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التى هو مشهور بها وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأنا فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذى هو الاستئناس المأمور به فى الآية وقال العوفى عن ابن عباس: الاستئناس الاستئذان ، وكذا قال غير واحد ، وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى هذه الآية (لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا) قال إنما هى خطأ من الكتاب حتى تستأذنوا وتسلموا وهكذا رواه هشيم عن أبى بشر وهو جعفر بن إياس عن سعيد عن ابن عباس بمثله ، وزاد وكان ابن عباس يقرأ (حتى تستأذنوا وتسلموا) وكان يقرأ على قراءة أبى بن كعب رضى الله عنه

وهذا غريب جدا عن ابن عباس وقال هشيم أخبرنا مغيرة عن إبراهيم قال فى مصحف ابن مسعود حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا ، وهذا أيضاً رواية عن ابن عباس وهو اختيار ابن جرير ، وقد قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا ابن جريج أخبرنى عمرو بن أبى سفيان أن عمرو بن أبى صفوان أخبره أن كلدة بن الحنبل أخبره أن صفوان بن أمية بعثه فى الفتح بلبأ وجداية وضغابيس والنبى ﷺ بأعلى الوادى قال فدخلت على النبى ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن . فقال ﷺ « ارجع فقل السلام عليكم أ أدخل » وذلك بعد ما أسلم صفوان ، ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من حديث ابن جريج به وقال الترمذى حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه ، وروى أبو داود حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا أبو الأحوص عن منصور عن ربعى قال أتى رجل من بنى عامر استأذن على رسول الله ﷺ وهو فى بيته فقال أ ألج ؟ فقال النبى ﷺ لخادمه « اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له: قل السلام عليكم أ أدخل » فسمعه الرجل فقال السلام عليكم أ أدخل فأذن له النبى صلى الله عليه وسلم فدخل وقال هشيم أخبرنا منصور عن ابن سيرين وأخبرنا يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد الثقفى أن رجلا استأذن على النبى ﷺ فقال أ ألج أو أنلج ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأمة له يقال لها روضة « قومى إلى هذا فعلميه فإنه لا يحسن يستأذن فقولى له يقول السلام عليكم أ أدخل » فسمعها الرجل فقال : السلام عليكم أ أدخل فقال « ادخل » وقال الترمذى حدثنا الفضل بن الصباح حدثنا سعيد بن زكريا عن عنبسة بن عبد الرحمن عن محمد بن زاذان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « السلام قبل الكلام » ثم قال الترمذى عنبسة ضعيف الحديث ذاهب ومحمد بن زاذان فى إسناده نكارة وضعف ، وقال هشيم قال مغيرة قال مجاهد جاء ابن عمر من حاجة وقد آذاه الرمضاء فأتى فسطاط امرأة من قريش فقال السلام عليكم أ أدخل ؟ قالت ادخل بسلام فأعاد فأعادت وهو يراوح بين قدميه قال قولى ادخل قالت ادخل فدخل . ولابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو نعيم الأحول حدثنى خالد بن إياس حدثتنى جدتى أم إياس قالت : كنت فى أربع نسوة نستأذن على عائشة فقلن ندخل ؟ فقالت لا ، قلن لصاحبتكن تستأذن فقالت السلام عليكم أندخل ؟ قالت ادخلوا ثم قالت (يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها) الآية . وقال هشيم أخبرنا أشعث بن سوار عن كردوس عن ابن مسعود قال عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم ، وقال أشعث عن عدى بن ثابت ان امرأة من الأنصار قالت يارسول الله إنى أكون فى منزلى على الحال التى لا أحب أن يرانى أحد عليها لا والد ولا ولد وإنه لايزال يدخل على رجل من أهلى وأنا على تلك الحال : قال فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا) الآية وقال ابن جريج سمعت عطاء بن أبى رباح يخبر عن ابن عباس رضى الله عنه قال : ثلاث آيات جحدهن الناس . قال الله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) قال ويقولون إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتا قال والأدب كله قد جحده الناس قال قلت أستأذن على أخواتى أيتام فى حجرى معى فى بيت واحد ؟ قال نعم فرددت عليه ليرخص لى فأبى فقال تحب أن تراها عريانة ؟ قلت لا قال فاستأذن قال فراجعته أيضاً فقال : أتحب أن تطيع الله ؟ قال قلت نعم قال فاستأذن . قال ابن جريج وأخبرنى ابن طاوس عن أبيه قال : مامن امرأة أكره إلى أن أرى عورتها من ذات محرم قال : وكان يشدد فى ذلك ، وقال ابن جريج عن الزهرى سمعت هزيل بن شرحبيل الأودى الأعمى انه سمع ابن مسعود يقول عليكم الاذن على أمهاتكم ، وقال ابن جريج قلت لعطاء أيستأذن الرجل على امرأته قال لا وهذا محمول على عدم الوجوب وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها . وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا محمد بن حازم عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن يحيى بن الجزار عن ابن أخى زينب امرأة عبد الله بن مسعود عن زينب رضى الله عنها قالت كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ، إسناده صحيح وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطى حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى هبيرة قال كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس تكلم ورفع صوته ، وقال مجاهد حتى تستأنسوا قال تنحنحوا أو تنخموا

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال : إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا — وفي رواية — ليلا يتخونهم ، وفي الحديث الآخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة نهارا فأناخ بظاهرها وقال « انتظروا حتى ندخل عشاء — يعني آخر النهار — حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الرحمن بن سليمان عن واصل بن السائب حدثني أبو ثورة ابن أخي أبي أيوب عن أبي أيوب قال قلت يا رسول الله هذا السلام فما الاستئناس ؟ قال « يتكلم الرجل بتسبيحة أو تكبيرة أو تحميدة ويتنحنح فيؤذن أهل البيت » هذا حديث غريب ، وقال قتادة في قوله (حتى تستأنسوا) هو الاستئذان ثلاثا فمن لم يؤذن له منهم فليرجع أما الأولى فليسمع الحي ، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم : وأما الثالثة فان شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم فان للناس حاجات ولهم أشغال والله أولى بالعذر . وقال مقاتل بن حيان في قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ويقول حييت صباحا وحييت مساء وكان ذلك تحية القوم بينهم وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول قد دخلت ونحو ذلك فيشق ذلك على الرجل ولعله يكون مع أهله فغير الله ذلك كله في ستر وعفة وجعله نقياً نزها من الدنس والقذر والدرن فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) الآية وهذا الذي قاله مقاتل: حسن ولهذا قال تعالى (ذلكم خير لكم) يعني الاستئذان خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت (لعلكم تذكرون) وقوله تعالى (فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه فان شاء أذن وإن شاء لم يأذن (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم) أي إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده (فارجعوا هو أزكى لكم) أي رجوعكم أزكى لكم وأطهر (والله بما تعملون عليم) وقال قتادة قال بعض المهاجرين لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها أن أستأذن على بعض اخواني فيقول لي ارجع فأرجع وأنا مغتبط[1] (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم) وقال سعيد بن جبير في الآية أي لا تقفوا على أبواب الناس وقوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة) الآية هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها بغير إذن كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى . قال ابن جريج قال ابن عباس (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم) ثم نسخ واستثنى فقال تعالى (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم وكذا روي عن عكرمة والحسن البصري وقال آخرون: هي بيوت التجار كالخانات ومنازل الأسفار وبيوت مكة وغير ذلك واختار ذلك ابن جرير وحكاه عن جماعة والأول أظهر والله أعلم ، وقال مالك عن زيد ابن أسلم هي بيوت الشعر

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه وأن يغمضوا أبصارهم عن المحارم ، فان اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعا كما رواه مسلم في صحيحه من حديث يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن جده جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري . وكذا رواه الإمام أحمد عن هشيم عن يونس بن عبيد به ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديثه أيضا وقال الترمذي حسن صحيح وفي رواية لبعضهم فقال « أطرق بصرك » يعني انظر إلى الأرض ، والصرف أعم فانه قد يكون إلى الأرض وإلى جهة أخرى والله أعلم وقال أبو داود حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري حدثنا شريك عن أبي ربيعة الأيادي

(١) في النسخة المكية : متغبط .

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى « يا على لاتتبع النظرة النظرة فان لك الأولى وليس لك الآخرة » ورواه الترمذى من حديث شريك وقال غريب لانعرفه إلا من حديثه ، وفى الصحيح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والجلوس على الطرقات » قالوا يارسول الله لابد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه » قالوا وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال « غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » وقال أبو القاسم البغوى حدثنا طالوت بن عباد حدثنا فضيل بن حسين سمعت أبا أمامة يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة ، إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا اؤتمن فلا يخن وإذا وعد فلا يخلف وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم » وفى صحيح البخارى « من يكفل لى مابين لحييه ومابين رجليه أكفل له الجنة » وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة قال كل ماعصى الله به فهو كبيرة وقد ذكر الطرفين فقال (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب كما قال بعض السلف : النظر سهم سم إلى القلب . ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التى هى بواعث إلى ذلك فقال تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا كما قال تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون) الآية وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء فى الحديث فى مسند أحمد والسنن « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ماملكت يمينك » (ذلك أزكى لهم) أى أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم كما قيل من حفظ بصره أورثه الله نورا فى بصيرته ، ويروى فى قلبه . وروى الإمام أحمد حدثنا عتاب . حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن على بن زيد عن القاسم عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها » وروى هذا مرفوعا عن ابن عمر وحذيفة وعائشة رضى الله عنهم ولكن فى أسانيدها ضعف إلا أنها فى الترغيب ومثله يتسامح فيه ، وفى الطبرانى من طريق عبد الله بن يزيد عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة مرفوعا « لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم ولتقيمن وجوهكم أو لتكسفن وجوهكم » وقال الطبرانى حدثنا أحمد بن زهير التسترى قال : قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرى حدثنا يحيى بن أبى بكير حدثنا هريم بن سفيان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه مخافتى أبدلته إيمانا يجد حلاوتها فى قلبه » وقوله تعالى (إن الله خبير بما يصنعون) كما قال تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق وزنا الأذنين الاستماع وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين الخطى والنفس تمنى وتشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » رواه البخارى تعليقا ومسلم مسندا من وجه آخر بنحو ماذكر وقد قال كثير من السلف إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد وقد شدد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان وشدد آخرون فى ذلك كثيرا جدا وقال ابن أبى الدنيا حدثنا أبو سعيد المدنى حدثنا عمر بن سهل المازنى حدثنى عمر بن محمد بن صهبان عن صفوان بن سليم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله وعينا سهرت فى سبيل الله وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله » عز وجل

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ

بُعولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات وغيرة منه لأزواجهن عباده المؤمنين وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات وكان سبب نزول هذه الآية ماذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا والله أعلم أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في محل لها في بني حارثة فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء ماأقبح هذا فأنزل الله تعالى (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) الآية فقوله تعالى (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) أي عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن، ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلا ، واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذي من حديث الزهري عن نبهان مولى أم سلمة أنه حدثه أن أم سلمة حدثته أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وميمونة قالت فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله ﷺ « احتجبا منه » فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوعمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه » ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح . وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملت ورجعت . وقوله (ويحفظن فروجهن) قال سعيد بن جبير :عن الفواحش وقال قتادة وسفيان عما لا يحل لهن وقال مقاتل عن الزنا ، وقال أبو العالية كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا إلا هذه الآية (ويحفظن فروجهن) أن لا يراها أحد ، وقوله تعالى (ولا يبدين زينتهن إلاماظهر منها) أي لا يظهرن شيئا من الزينة للاجانب إلامالا يمكن إخفاؤه : قال ابن مسعود كالرداء والثياب يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب من القنعة التي تجلل ثيابها وما يبدومن أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه لأن هذا لا يمكنها اخفاؤه ونظيره في زي النساء مايظهر من إزارها وما لا يمكن اخفاؤه وقال بقول ابن مسعود، الحسن وابن سيرين وأبو الجوزاء وإبراهيم النخعي وغيرهم ، وقال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) قال وجهها وكفيها والخاتم .وروى عن ابن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء والضحاك وإبراهيم النخعي وغيرهم نحو ذلك وهذا يحتمل أن يكون تفسيرا للزينة التي نهين عن ابدائها كما قال أبو إسحق السبيعي عن أبي الأحوص عن عبدالله قال في قوله (ولا يبدين زينتهن) الزينة القرط والدملوج والخلخال والقلادة ،وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال:الزينة زينتان فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب وقال الزهري لا يبدو لهؤلاء الذين سمى الله ممن لاتحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر وأما عامة الناس فلايبدو منها إلا الخواتم ، وقال مالك عن الزهري (إلاماظهر منها) الخاتم والخلخال . ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين وهذا هو المشهور عند الجمهور ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه حدثنا يعقوب بن كعب الانطاكي ومؤمل بن الفضل الحراني قالا : حدثنا الوليد عن سعيد بن بشير عن قتادة عن خالد بن دريك عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي هو مرسل . خالد بن دريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها والله أعلم وقوله تعالى (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) يعني المقانع يعمل لها صفات

ضاربات على صدورهن لتوارى ما تحتها من صدرها وترائبها ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية فانهن لم يكن يفعلن ذلك بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحه بصدرها لايواريه شيء وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها فأمر الله المؤمنات أن يستترن فى هيئاتهن وأحوالهن كما قال تعالى (يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) وقال فى هذه الآية الكريمة (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) والخمر جمع خمار وهو مايخمر به أى يغطى به الرأس وهى التى تسميها الناس المقانع . قال سعيد بن جبير (وليضربن) وليشددن (بخمرها على جيوبهن) يعنى على النحر والصدر فلا يرى منه شيء وقال البخارى حدثنا أحمد بن شبيب حدثنا أبى عن يونس عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن مروطهن فاختمرن بها. وقال أيضاً حدثنا أبو نعيم حدثنا إبراهيم بن نافع عن الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة أن عائشة رضى الله عنها كانت تقول : لما نزلت هذه الآية (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشى فاختمرن بها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن عبدالله بن يونس حدثنى الزنجى بن خالد حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن صفية بنت شيبة قالت : بينا نحن عند عائشة قالت فذكرنا نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة رضى الله عنها إن لنساء قريش لفضلا وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا لكتاب الله ولا إيمانا بالتنزيل لقد أنزلت سورة النور (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذى قرابته فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم معتجرات كأن على رءوسهن الغربان . ورواه أبو داود من غير وجه عن صفية بنت شيبة به ، وقال ابن جرير حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب أن قرة بن عبد الرحمن أخبره عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة قالت يرحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن أكتف مروطهن فاختمرن بها . ورواه أبو داود من حديث ابن وهب به ، وقوله تعالى (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن) أى أزواجهن (أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن) كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير تبرج وقد روى ابن المنذر حدثنا موسى يعنى ابن هارون حدثنا أبو بكر يعنى ابن أبى شيبة حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا داود عن الشعبى وعكرمة فى هذه الآية (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن) حتى فرغ منها وقال لم يذكر العم ولا الخال لأنهما ينعتان لأبنائهما ولاتضع خمارها عند العم والخال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره . وقوله (أو نسائهن) يعنى تظهر بزينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلا تصفهن لرجالهن وذلك وإن كان محذوراً فى جميع النساء إلا أنه فى نساء أهل الذمة أشد فانهن لا يمنعهن من ذلك مانع فأما المسلمة فانها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها » أخرجاه فى الصحيحين عن ابن مسعود وروى سعيد بن منصور فى سننه حدثنا إسماعيل بن عياش عن هشام بن الغازى عن عبادة بن نسى عن أبيه عن الحارث بن قيس أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبى عبيدة : أما بعد فانه بلغنى أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك فانه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها . وقال مجاهد فى قوله (أو نسائهن) قال نساؤهن المسلمات ليس المشركات من نسائهن وليس للمرأة المسلمة أن تتكشف بين يدى مشركة ، وروى عبد الله فى تفسيره عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أو نسائهن قال هن المسلمات لا تبديه لهودية ولا نصرانية وهو النحر والقرط والوشاح وما لا يحل أن يراه إلا محرم ، وروى سعيد حدثنا جرير عن ليث عن مجاهد قال لاتضع المسلمة خمارها عند مشركة لأن الله تعالى يقول (أو نسائهن) فليست من نسائهن ، وعن مكحول وعبادة بن نسى أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة ، فأما ما رواه ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أبو عمير حدثنا

ضمرة قال : قال ابن عطاء عن أبيه قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ بيت المقدس كان قوابل نسائهن اليهوديات والنصرانيات فهذا إن صح فمحمول على حال الضرورة أو أن ذلك من باب الامتهان ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولابد والله أعلم . وقوله تعالى (أوما ملكت أيمانهن) قال ابن جرير يعنى من نساء المشركين فيجوز لهما أن تظهر زينتها لها ، وإن كانت مشركة لأنها أمتها وإليه ذهب سعيد بن المسيب ، وقال الأكثرون بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء واستدلوا بالحديث الذى رواه أبو داود حدثنا محمد بن عيسى حدثنا أبو جميع سالم بن دينار عن ثابت عن أنس أن النبي صلى الله عليه سلم أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها قال وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ماتلقى قال « إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك » . وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة خديج الحمصى مولى معاوية أن عبد الله بن مسعدة الفزارى كان أسود شديد الأدمة وأنه قد كان النبي ﷺ وهبه لابنته فاطمة فربته ثم أعتقته ثم قد كان بعد ذلك كله برزمع معاوية أيام صفين وكان من أشد الناس على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وروى الإمام أحمد حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهرى عن نبهان عن أم سلمة ذكرت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا كان لاحداكن مكاتب وكان له ما يؤدى فلتحتجب منه » ورواه أبو داود عن مسدد عن سفيان به وقوله تعالى (أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال) يعنى كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء وهم مع ذلك فى عقولهم وله وحوب، ولاهمة لهم إلى النساء ولا يشتهونهن قال ابن عباس هو المغفل الذى لا شهوة له . وقال مجاهد هو الأبله ، وقال عكرمة هو المخنث الذى لا يقوم ذكره ، وكذلك قال غير واحد من السلف ، وفى الصحيح من حديث الزهرى عن عروة عن عائشة أن مخنثا كان يدخل على أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يعدونه من غير أولى الاربة فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وهو ينعت امرأة يقول إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لايدخلن عليكم » فأخرجه فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة ليستطعم . وروى الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أبى سلمة عن أم سلمة أنها قالت دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندها مخنث وعندها عبد الله بن أبى أمية يعنى أخاها والمخنث يقول : يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غداً فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل باربع وتدبر بثمان قال فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأم سلمة « لايدخلن هذا عليك » أخرجاه فى الصحيحين من حديث هشام ابن عروة وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مخنث وكانوا يعدونه من غير أولى الاربة فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة ، فقال إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ألا أرى هذا يعلم ماههنا لايدخلن عليكم هذا » فحجبوه ورواه مسلم وأبو داود والنسائى من طريق عبد الرزاق به عن أم سلمة وقوله تعالى (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) يعنى لصغرهم لايفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم وتعطفهن فى المشية وحركاتهن وسكناتهن فإذا كان الطفل صغيرا لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء فأما إن كان مراهقا أو قريبا منه بحيث يعرف ذلك ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسناء فلا يمكن من الدخول على النساء ، وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إياكم والدخول على النساء » قيل يا رسول الله أفرأيت الحمو ؟ قال « الحمو الموت » وقوله تعالى (ولا يضربن بأرجلهن) الآية كانت المرأة فى الجاهلية إذا كانت تمشى فى الطريق وفى رجلها خلخال صامت لايعلم صوتها ضربت برجلها الأرض فيسمع الرجال طنينه فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك ، وكذلك إذا كان شىء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفى دخل فى هذا النهى لقوله تعالى (ولايضربن بأرجلهن) إلى آخره ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها فقد قال أبو عيسى الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا

يحيى بن سعيد القطان عن ثابت بن عمارة الحنفى عن غنيم بن قيس عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا » يعنى زانية ، وفى الباب عن أبى هريرة وهذا حسن صحيح رواه أبو داود والنسائى من حديث ثابت بن عمارة به . وقال أبو داود حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن عاصم بن عبيد الله عن عبيد مولى أبى رهم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لقيته امرأة شم منها ريح الطيب ولذيلها إعصار فقال يا أمة الجبار جئت من المسجد ؟ قالت نعم . قال لها : تطيبت قالت نعم . قال إنى سمعت حبى أبا القاسم ﷺ يقول « لا تقبل الله صلاة امرأة طيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغسل غسلها من الجنابة » ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن سفيان هو ابن عيينة به . وروى الترمذى أيضاً من حديث موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد عن ميمونة بنت سعد أن رسول الله ﷺ قال « الرافلة فى الزينة فى غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها » ومن ذلك أيضا أنهن ينهين عن المشى فى وسط الطريق لما فيه من التبرج . قال أبو داود حدثنا التغلبى حدثنا عبد العزيز يعنى ابن محمد عن ابن أبى اليمان عن شداد بن أبى عمرو بن حماس عن أبيه عن حمزة بن أبى أسيد الأنصارى عن أبيه أنه سمع النبى ﷺ وهو خارج من المسجد ، وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق فقال رسول الله ﷺ للنساء « استأخرن فانه ليس لكن أن تحققن الطريق ، عليكن بحافات الطريق » فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به وقوله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) أى افعلوا ما أمركم به من هذا الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة فإن الفلاح كل الفلاح فى فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهيا عنه والله تعالى هو المستعان

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة والأوامر المبرمة فقوله تعالى (وأنكحوا الأيامى منكم) إلى آخره هذا أمر بالتزويج . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه واحتجوا بظاهر قوله عليه السلام « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » أخرجاه فى الصحيحين من حديث ابن مسعود وقد جاء فى السنن من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « تزوجوا الولود تناسلوا فانى مباه بكم الأمم يوم القيامة » وفى رواية « حتى بالسقط » الأيامى جميع أيم ويقال ذلك للمرأة التى لا زوج لها وللرجل الذى لا زوجة له وسواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج واحد منهما حكاه الجوهرى عن أهل اللغة ، يقال رجل أيم وامرأة أيم . وقوله تعالى (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) الآية قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رغبهم الله فى التزويج وأمر به الاحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى فقال (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمود بن خالد الأزرق حدثنا عمر بن عبد الواحد عن سعيد — يعنى ابن عبد العزيز — قال بلغنى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى قال تعالى (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى

فى النكاح . يقول الله تعالى (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) رواه ابن جرير وذكر البغوى عن عمر نحوه . وعن الليث عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة حق على الله عونهم الناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء والغازى فى سبيل الله » رواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه ، وقد زوج النبى ﷺ ذلك الرجل الذى لم يجد عليه إلا إزاره ولم يقدر على خاتم من حديد ومع هذا فزوجه بتلك المرأة وجعل صداقها عليه أن يعلمها مامعه من القرآن . والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه مافيه كفاية لها وله ، وأما مايورده كثير من الناس على أنه حديث « تزوجوا فقراء يغنكم الله » فلا أصل له ولم أره بإسناد قوى ولا ضعيف إلى الآن وفى القرآن غنية عنه وكذا هذه الأحاديث التى أوردناها ولله الحمد والمنة ، وقوله تعالى (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله) هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام كما قال صلى الله عليه وسلم « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » الحديث ، وهذه الآية مطلقة والتى فى سورة النساء أخص منها وهى قوله (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات — إلى قوله — وأن تصبروا خير لكم) أى صبركم عن تزوج الإماء خير لكم لأن الولد يجىء رقيقا (والله غفور رحيم) قال عكرمة فى قوله (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً) قال هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهى فان كانت له امرأة فليذهب اليها وليقض حاجته منها ، وإن لم يكن له امرأة فلينظر فى ملكوت السموات والأرض حتى يغنيه الله وقوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدى إلى سيده المال الذى شارطه على أدائه ، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب لا أمر تحتم وإيجاب بل السيد مخير إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه ، قال الثورى عن جابر عن الشعبى إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه ، وكذا روى ابن وهب عن إسماعيل بن عياش عن رجل عن عطاء بن أبى رباح إن شاء كاتبه وإن يشأ لم يكاتبه وكذا قال مقاتل بن حيان والحسن البصرى ، وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ماطلب أخذاً بظاهر هذا الأمر . وقال البخارى وقال روح عن ابن جريج قلت لعطاء أواجب على إذا علمت له مالا أن أكاتبه ، قال ما أراه إلا واجباً ، وقال عمرو بن دينار قلت لعطاء أتأثره عن أحد ، قال: لا ، ثم أخبرنى أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنساً المكاتبة وكان كثير المال فأبى فانطلق إلى عمر رضى الله عنه فقال كاتبه فأبى فضربه بالدرة ويتلو عمر رضى الله عنه (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) فكاتبه هكذا ذكره البخارى معلقاً ، ورواه عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج قال قلت لعطاء : أواجب على إذا علمت له مالا أن أكاتبه ؟ قال ما أراه إلا واجباً . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن بكر حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك أن سيرين أراد أن يكاتبه فتلكأ عليه فقال له عمر لتكاتبنه إسناد صحيح ، وروى سعيد بن منصور حدثنا هشيم بن جويبر عن الضحاك قال هى عزمة وهذا هو القول القديم من قولى الشافعى وذهب فى الجديد إلى أنه لا يجب لقوله عليه السلام « لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس » وقال ابن وهب قال مالك : الأمر عندنا أنه ليس على سيد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكاتب عبده . قال مالك وإنما ذلك أمر من الله تعالى وإذن منه للناس وليس بواجب ، وكذا قال الثورى وأبو حنيفة وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وغيرهم واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية ، وقوله تعالى (إن علمتم فيهم خيراً) قال بعضهم أمانة وقال بعضهم صدقا ، وقال بعضهم مالا ، وقال بعضهم حيلة وكسبا ، وروى أبو داود فى المراسيل عن يحيى بن أبى كثير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) قال « إن علمتم فيهم حرفة ولا ترسلوهم كلا على الناس » : وقوله تعالى (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم معناه اطرحوا لهم من الكتابة بعضها ثم قال بعضهم مقدار الربع ، وقيل الثلث ، وقيل النصف ، وقيل جزء من الكتابة من غير حد ،

وقال آخرون بل المراد من قوله (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) هو النصيب الذى فرض الله لهم من أموال الزكاة وهذا قول الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبيه ومقاتل بن حيان واختاره ابن جرير وقال إبراهيم النخعى فى قوله (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) قال حث الناس عليه مولاه وغيره ، وكذا قال بريدة بن الحصيب الأسلمى وقتادة ، وقال ابن عباس أمر الله المؤمنين أن يعينوا فى الرقاب ، وقد تقدم فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثة حق على الله عونهم » فذكر منهم المكاتب يريد الأداء والقول الأول أشهر ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا وكيع عن ابن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر أنه كاتب عبدا له يكنى أبا أمية فجاء بنجمه حين حل فقال يا أبا أمية اذهب فاستعن به فى مكاتبتك فقال يا أمير المؤمنين لو تركته حتى يكون من آخر نجم ؟ قال أخاف أن لا أدرك ذلك ثم قرأ (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) قال عكرمة فكان أول نجم أدى فى الإسلام ، وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا هرون بن المغيرة عن عنسة عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال : كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبا لم يضع عنه شيئا من أول نجومه مخافة أن يعجز فترجع اليه صدقته ، ولكنه إذا كان فى آخر مكاتبته وضع عنه ما أحب ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) قال ضعوا عنهم من مكاتبتهم ، وكذا قال مجاهد وعطاء والقاسم بن أبى بزة وعبد الكريم ابن مالك الجزرى والسدى ، وقال محمد بن سيرين فى الآية كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته ، وقال ابن أبى حاتم أخبرنا الفضل بن شاذان القرى أخبرنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسف عن ابن جريج أخبرنى عطاء ابن السائب أن عبد الله بن جندب أخبره عن على رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « ربع الكتابة » وهذا حديث غريب ورفعه منكر والأشبه أنه موقوف على على رضى الله عنه كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلمى رحمه الله

وقوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) الآية كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزنى وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف فى شأن عبد الله بن أبى ابن سلول فإنه كان له إماء فكان يكرههن على البغاء طلبا لخراجهن ورغبة فى أولادهن ورياسة منه فيما يزعم .

﴿ ذكر الآثار الواردة فى ذلك ﴾

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار رحمه الله فى مسنده حدثنا أحمد بن داود الواسطى حدثنا أبو عمرو اللخمى يعنى محمد بن الحجاج حدثنا محمد بن إسحق عن الزهرى قال كانت جارية لعبد الله بن أبى ابن سلول يقال لها معاذة يكرهها على الزنا فلما جاء الإسلام نزلت (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) الآية ، وقال الأعمش عن أبى سفيان عن جابر فى هذه الآية قال نزلت فى أمة لعبد الله بن أبى ابن سلول يقال لها مسيكة كان يكرهها على الفجور وكانت لا بأس بها فتأبى فأنزل الله هذه الآية (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء - إلى قوله - ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) وروى النسائى من حديث ابن جريج عن أبى الزبير عن جابر نحوه ، وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عمرو بن على حدثنا على بن سعيد حدثنا الأعمش حدثنى أبو سفيان عن جابر قال كان لعبد الله بن أبى ابن سلول جارية يقال لها مسيكة وكان يكرهها على البغاء فأنزل الله (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء - إلى قوله - ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) صرح الأعمش بالسماع من أبى سفيان بن طلحة ابن نافع فدل على بطلان قول من قال لم يسمع منه إنما هو صحيفة حكاه البزار ، وروى أبو داود الطيالسى عن سليمان بن معاذ عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس أن جارية لعبد الله بن أبى كانت تزنى فى الجاهلية فولدت أولادا من الزنا فقال لها مالك لا تزنين قالت والله لا أزنى فضربها فأنزل الله عز وجل (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) ، وروى البزار أيضا حدثنا أحمد بن داود الواسطى حدثنا أبو عمرو اللخمى يعنى محمد بن الحجاج حدثنا محمد بن إسحق عن الزهرى عن أنس رضى الله عنه قال : كانت جارية لعبد الله بن أبى يقال لها معاذة يكرهها على الزنا فلما جاء الإسلام نزلت (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا - إلى قوله - ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم)

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى أن رجلا من قريش أسر يوم بدر وكان عند عبد الله بن أبى أسير أو كانت لعبد الله بن أبى جارية يقال لها معاذة وكان القرشى الأسير يريدها على نفسها وكانت مسلمة وكانت تمتنع منه لاسلامها وكان عبد الله بن أبى يكرهها على ذلك ويضربها رجاء أن تحمل من القرشى فيطلب فداء ولده، فقال تبارك وتعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) . وقال السدى أنزلت هذه الآية الكريمة فى عبد الله ابن أبى ابن سلول رأس المنافقين وكانت له جارية تدعى معاذة وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له فأقبلت الجارية إلى أبى بكر رضى الله عنه فشكت إليه ذلك فذكره أبو بكر للنبى صلى الله عليه وسلم فأمره بقبضها فصاح عبد الله بن أبى من يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا فأنزل الله فيهم هذا ، وقال مقاتل بن حيان بلغنى والله أعلم أن هذه الآية نزلت فى رجلين كانا يكرهان أمتين لهما إحداهما اسمها مسيكة وكانت للأنصار ، وكانت أميمة أم مسيكة لعبد الله بن أبى وكانت معاذة وأروى بتلك المنزلة فأتت مسيكة وأمها النبى صلى الله عليه وسلم فذكرتا ذلك له فأنزل الله فى ذلك (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) يعنى الزنا ، وقوله تعالى (إن أردن تحصنا) هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، وقوله تعالى (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) أى من خراجهن ومهورهن وأولادهن وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب الحجام ومهر البغى وحلوان الكاهن ، وفى رواية « مهر البغى خبيث وكسب الحجام خبيث ، وثمن الكلب خبيث » وقوله تعالى (ومن يكرههن فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم) أى لهن كما تقدم فى الحديث عن جابر . وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فان فعلتم فان الله لهن غفور رحيم وإثمهن على من أكرههن وكذا قال مجاهد وعطاء الخراسانى والأعمش وقتادة : وقال أبو عبيد حدثنى إسحق الأزرق عن عوف عن الحسن فى هذه الآية (فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم) قال لهن والله لهن والله: وعن الزهرى قال غفور لهن ما أكرهن عليه وعن زيد بن أسلم قال غفور رحيم للمكرهات ، حكاهن ابن المنذر فى تفسيره بأسانيده ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله حدثنى ابن لهيعة حدثنى عطاء عن سعيد بن جبير قال فى قراءة عبد الله بن مسعود (فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم) لهن وإثمهن على من أكرههن ، وفى الحديث المرفوع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) يعنى القرآن فيه آيات واضحات مفسرات (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) أى خبرا عن الأمم الماضية وما حل بهم فى مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى (فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) أى زاجرا عن ارتكاب المآثم والمحارم (وموعظة للمتقين) أى لمن اتقى الله وخافه . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى صفة القرآن : فيه حكم ما بينكم وخبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله

﴿ اللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (الله نور السموات والأرض) يقول هادى أهل السموات والأرض . قال ابن جريج قال مجاهد وابن عباس فى قوله (الله نور السموات والأرض) يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما وقال ابن جرير حدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرقى حدثنا وهب بن راشد عن فرقد عن أنس بن مالك قال : إن الله يقول نورى هدى واختار هذا القول ابن جرير وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى ابن كعب فى قوله تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره) قال هو المؤمن الذى جعل الله الإيمان والقرآن

فى صدره فضرب الله مثله فقال (الله نور السموات والأرض) فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به ، قال فكان أبى بن كعب يقرؤها (مثل نور من آمن به) فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن فى صدره وهكذا رواه سعيد بن جبير وقيس بن سعد عن ابن عباس أنه قرأها كذلك (مثل نور من آمن بالله) وقرأ بعضهم (الله منور السموات والأرض) وعن الضحاك (الله نوّر السموات والأرض) وقال السدى فى قوله (الله نور السموات والأرض) فبنوره أضاءت السموات والأرض وفى الحديث الذى رواه محمد بن إسحق فى السيرة عن رسول الله ﷺ أنه قال فى دعائه يوم آذاه أهل الطائف « اعوذ بنور وجهك الذى اشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بى غضبك أو ينزل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله » وفى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن » الحديث ، وعن ابن مسعود قال إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور العرش من نور وجهه وقوله تعالى (مثل نوره) فى هذا الضمير قولان ﴿ أحدهما ﴾ أنه عائد إلى الله عز وجل أى مثل هداه فى قلب المؤمن قاله ابن عباس (كمشكاة) ﴿ والثانى ﴾ أن الضمير عائد إلى المؤمن الذى دل عليه سياق الكلام تقديره مثل نور المؤمن الذى فى قلبه كمشكاة ، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه كما قال تعالى (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) فشبه قلب المؤمن فى صفائه فى نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهرى وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافى المشرق المعتدل الذى لا كدر فيه ولا انحراف ، فقوله (كمشكاة) قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغير واحد : هو موضع الفتيلة من القنديل هذا هو المشهور ولهذا قال بعده (فيها مصباح) وهو الزبالة التى تضىء . وقال العوفى عن ابن عباس قوله (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) وذلك أن اليهود قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم كيف يخلص نور الله من دون السماء ؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة) والمشكاة كوة فى البيت ، قال وهو مثل ضربه الله لطاعته فسمى الله طاعته نورا ثم سماها أنواعا شتى ، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد : هى الكوة بلغة الحبشة وزاد بعضهم فقال المشكاة الكوة التى لا منفذ لها وعن مجاهد المشكاة الحدائد التى يعلق بها القنديل والقول الأول أولى وهو أن المشكاة هو موضع الفتيلة من القنديل ولهذا قال (فيها مصباح) وهو النور الذى فى الزبالة ، قال أبى بن كعب المصباح النور وهو القرآن والإيمان الذى فى صدره وقال السدى هو السراج (المصباح فى زجاجة) أى هذا الضوء مشرق فى زجاجة صافية ، وقال أبى بن كعب وغير واحد وهى نظير قلب المؤمن (الزجاجة كأنها كوكب درى) قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة من الدر أى كأنها كوكب من در ، وقرأ آخرون درىء ودرىء بكسر الدال وضمها مع الهمزة من الدرء وهو الدفع ، وذلك أن النجم إدارى به يكون أشد استنارة من سائر الأحوال ، والعرب تسمى مالا يعرف من الكواكب درارى ، قال أبى بن كعب : كوكب مضىء ، وقال قتادة مضىء مبين ضخم (يوقد من شجرة مباركة) أى يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة (زيتونة) بدل أو عطف بيان (لا شرقية ولا غربية) أى ليست فى شرقى بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ولا فى غربيها فيقلص عنها الفىء قبل الغروب بل هى فى مكان وسط تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره فيجىء زيتها صافيا معتدلا مشرقا ، وروى ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عمار قال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد أخبرنا عمرو بن أبى قيس عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (زيتونة لا شرقية ولا غربية) قال هى شجرة بالصحراء لا يظلها شجر ولا جبل ولا كهف ولا يواريها شىء وهو أجود لزيتها وقال يحيى بن سعيد القطان عن عمران بن جرير عن عكرمة فى قوله تعالى (لا شرقية ولا غربية) قال هى بصحراء وذلك أصفى لزيتها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو نعيم حدثنا عمرو بن فروخ عن حبيب بن الزبير عن عكرمة وسأله رجل عن قوله تعالى (زيتونة لا شرقية ولا غربية) قال تلك زيتونة بأرض فلاة إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها فإذا غربت غربت عليها فذلك أصفى ما يكون من الزيت وقال مجاهد فى قوله تعالى (لا شرقية ولا غربية) قال ليست بشرقية لا تصيبها

الشمس إذا غربت ولا غربية لا تصيبها الشمس إذا طلعت ولكنها شرقية وغربية تصيبها إذا طلعت وإذا غربت .

وعن سعيد بن جبير فى قوله (زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء) قال هو أجود الزيت قال إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق فإذا أخذت فى الغروب أصابتها الشمس ، فالشمس تصيبها بالغداة والعشى فتلك لا تعد شرقية ولا غربية . وقال السدى قوله (زيتونة لا شرقية ولا غربية) يقول ليست بشرقية يحوزها المشرق ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق ولكنها على رأس جبل أو فى صحراء تصيبها الشمس النهار كله . وقيل المراد بقوله تعالى (لا شرقية ولا غربية) أنها فى وسط الشجر ليست بادية للمشرق ولا للمغرب ، وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع ابن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قول الله تعالى (زيتونة لا شرقية ولا غربية) قال هى خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أى حال كانت لا إذا طلعت ولا إذا غربت قال فكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يصيبه شىء من الفتن وقد يبتلى بها فيثبته الله فيها فهو بين أربع خلال ، إن قال صدق ، وإن حكم عدل ، وإن ابتلى صبر ، وإن أعطى شكر فهو فى سائر الناس كالرجل الحى يمشى فى قبور الأموات ، قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا مسدد قال حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير فى قوله (زيتونة لا شرقية ولا غربية) قال هى وسط الشجر لا تصيبها الشمس شرقا ولا غربا ، وقال عطية العوفى (لا شرقية ولا غربية) قال هى شجرة فى موضع من الشجر يرى ظل ثمرها فى ورقها وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عمار حدثنا عبد الرحمن الدشتكى حدثنا عمرو بن أبى قيس عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (لا شرقية ولا غربية) ليست شرقية ليس فيها غرب ، ولا غربية ليس فيها شرق ولكنها شرقية غربية ، وقال محمد بن كعب القرظى (لا شرقية ولا غربية) قال هى القبلية ، وقال زيد بن أسلم (لا شرقية ولا غربية) قال الشام وقال الحسن البصرى لو كانت هذه الشجرة فى الأرض لكانت شرقية أو غربية ، ولكنه مثل ضربه الله تعالى لنوره ، وقال الضحاك عن ابن (توقد من شجرة مباركة) قال رجل صالح (زيتونة لا شرقية ولا غربية) قال لا يهودى ولا نصرانى ، وأولى هذه الأقوال القول الأول وهو أنها فى مستوى من الأرض فى مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشمس تقرعه من أول النهار إلى آخره ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف كما قال غير واحد ممن تقدم ولهذا قال تعالى (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعنى لضوء إشراق الزيت ، وقوله تعالى (نور على نور) قال العوفى عن ابن عباس يعنى بذلك إيمان العبد وعمله ، وقال مجاهد والسدى يعنى نور النار ونور الزيت ، وقال أبى بن كعب (نور على نور) فهو يتقلب فى خمسة من النور ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة وقال ثمر بن عطية جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال حدثنى عن قول الله تعالى (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) قال يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبى كما يكاد ذلك الزيت أن يضىء . وقال السدى فى قوله تعالى (نور على نور) قال نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا ولا يضىء واحد بغير صاحبه كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه . وقوله تعالى (يهدى الله لنوره من يشاء) أى يرشد الله إلى هدايته من يختاره كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا إبراهيم بن محمد الفزارى حدثنا الأوزاعى حدثنى ربيعة بن يزيد عن عبد الله الديلمى عن عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله تعالى خلق خلقه فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ فمن أصاب من نوره يومئذ اهتدى ومن أخطأ ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله عز وجل » ﴿طريق أخرى عنه﴾ قال البزار حدثنا أيوب عن سويد عن يحيى بن أبى عمرو السيبانى عن أبيه عن عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله خلق خلقه فى ظلمة فألقى عليهم نوراً من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل » ورواه البزار عن عبد الله بن عمرو من طريق آخر بلفظه وحروفه . وقوله تعالى (ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم) لما ذكر تعالى هذا مثلا لنور هداه فى قلب المؤمن ختم الآية بقوله (ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم)

أى هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الاضلال . قال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا أبو معاوية حدثنا شيبان عن ليث عن عمرو بن مرة عن أبى البحترى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق ، عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النافق فيه كمثل القرحة يمدها الدم والقيح فأى المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » إسناده جيد ولم يخرجوه

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح فى الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب وذلك كالقنديل مثلا ذكر محلها وهى المساجد التى هى أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض وهى بيوته التى يعبد فيها ويوحد فقال تعالى (فى بيوت أذن الله أن ترفع) أى أمر الله تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التى لاتليق فيها . كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية الكريمة (فى بيوت أذن الله أن ترفع) قال نهى الله سبحانه عن اللغو فيها وكذا قال عكرمة وأبو صالح والضحاك ونافع بن جبير وأبو بكر بن سليمان ابن أبى خيثمة وسفيان بن حسين وغيرهم من العلماء المفسرين . وقال قتادة هى هذه المساجد أمر الله سبحانه وتعالى ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها . وقد ذكر لنا أن كعبا كان يقول : مكتوب فى التوراة إن بيوتى فى الأرض المساجد وإنه من توضأ فأحسن وضوءه ثم زارنى فى بيتى أكرمته وحق على المزور كرامة الزائر رواه عبد الرحمن ابن أبى حاتم فى تفسيره : وقد وردت أحاديث كثيرة فى بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطييبها وتبخيرها وذلك له محل مفرد يذكر فيه وقد كتبت فى ذلك جزءاً على حدة ولله الحمد والمنة ونحن بعون الله تعالى نذكرها هنا طرفا من ذلك إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ، فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة » أخرجاه فى الصحيحين وروى ابن ماجه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من بنى مسجدا يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتا فى الجنة » وللنسائى عن عمرو بن عنبسة مثله والأحاديث فى هذا كثيرة جدا وعن عائشة رضى الله عنها قالت أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد فى الدور وأن تنظف وتطيب . رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائى ، ولأحمد وأبى داود عن سمرة بن جندب نحوه وقال البخارى قال عمر : ابن للناس ما يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس ، وروى ابن ماجه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم » وفى إسناده ضعف . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أمرت بتشييد المساجد » قال ابن عباس أزخرفها كما زخرفت اليهود والنصارى . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لاتقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد » رواه أحمد وأهل السنن إلا الترمذى وعن بريدة أن رجلا أنشد فى المسجد فقال من دعا إلى الجمل الأحمر فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لا وجدت إنما بنيت المساجد لما بنيت له » رواه مسلم . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيع والابتياع وعن تناشد الأشعار فى المساجد . رواه أحمد وأهل السنن وقال الترمذى حسن . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد

فقولوا لاأربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فى المسجد فقولوا لاردها الله عليك » رواه الترمذى وقال حسن غريب ، وقد روى ابن ماجه وغيره من حديث ابن عمر مرفوعا قال : خصال لاتنبغى فى المسجد : لايتخذ طريقاً ولايشهر فيه سلاح ولاينبض فيه بقوس ولاينثر فيه نبل ولايمر فيه بلحم نىء ولايضرب فيه حد ولايقتص فيه أحد ولايتخذ سوقا ، وعن واثلة بن الأسقع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « جنبوا المساجد صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها فى الجمع » ورواه ابن ماجه أيضا وفى إسنادهما ضعف ، أما أنه لايتخذ طريقا فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه ، وفى الأثر إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لايصلى فيه ، وأما أنه لايشهر فيه السلاح ولاينبض فيه بقوس ولاينثر فيه نبل فلما يخشى من إصابة بعض الناس به لكثرة المصلين فيه ، ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مر رجل بسهام أن يقبض على نصالها لئلا يؤذى أحدا كما ثبت ذلك فى الصحيح وأما النهى عن المرور باللحم النىء فيه فلما يخشى من تقاطر الدم منه كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلويث ، وأما أنه لايضرب فيه حد ولا يقتص منه فلما يخشى من إيجاد النجاسة فيه من المضروب أو المقطوع ، وأما أنه لايتخذ سوقا فلما تقدم من النهى عن البيع والشراء فيه فانه إنما بنى لذكر الله والصلاة فيه كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لذلك الأعرابى الذى بال فى طائفة المسجد « إن المساجد لم تبن لهذا إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها » ثم أمر بسجل من ماء فأهريق على بوله وفى الحديث الثانى « جنبوا مساجدكم صبيانكم » وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم ، وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا رأى صبيانا يلعبون فى المسجد ضربهم بالمخفقة وهى الدرة وكان يفتش المسجد بعد العشاء فلا يترك فيه أحداً « ومجانينكم » يعنى لأجل ضعف عقولهم وسخر الناس بهم فيؤدى إلى اللعب فيها ولما يخشى من تقذيرهم المسجد ونحو ذلك « وبيعكم وشراءكم » كما تقدم « وخصوماتكم » يعنى التحاكم والحكم فيه ، ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لاينتصب لفصل الأقضية فى المسجد بل يكون فى موضع غيره لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والألفاظ التى لاتناسبه ، ولهذا قال بعده « ورفع أصواتكم »

وقال البخارى : حدثنا على بن عبد الله حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا الجعد بن عبد الرحمن قال : حدثنى يزيد بن خصيفة عن السائب بن يزيد الكندى قال : كنت قائما فى المسجد فحصبنى رجل فنظرت فاذا عمر بن الخطاب فقال : اذهب فائتنى بهذين فجئته بهما فقال من أنتما ؟ أو من أين أنتما ؟ قالا من أهل الطائف . قال لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ترفعان أصواتكما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال النسائى : حدثنا سويد بن نصر عن عبد الله ابن المبارك عن شعبة عن سعد بن إبراهيم عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : سمع عمر صوت رجل فى المسجد فقال ، أتدرى أين أنت ؟ وهذا أيضا صحيح وقوله « وإقامة حدودكم وسل سيوفكم » تقدما وقوله « واتخذوا على أبوابها المطاهر » يعنى المراحيض التى يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة . وقد كانت قريبا من مسجد رسول الله ﷺ آبار(١) يستقون منها فيشربون ويتطهرون ويتوضئون وغير ذلك . وقوله « وجمروها فى الجمع » يعنى بخروها فى أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ ، وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا عبيد الله حدثنا عبد الرحمن ابن مهدى عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن عمر كان يجمر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جمعة . إسناده حسن لابأس به والله أعلم وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « صلاة الرجل فى الجماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمساً وعشرين ضعفا » وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لايخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة . فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه . ولايزال فى صلاة ما انتظر الصلاة . وعند الدارقطنى مرفوعا « لاصلاة لجار المسجد إلا فى المسجد » وفى السنن « بشر المشائين إلى المساجد فى الظلم بالنور التام يوم القيامة » ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى وأن يقول كما ثبت فى صحيح البخارى(٢) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول

(١) فى النسخة المكية : أباريق (٢) هو فى أبى داود .

الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا دخل المسجد يقول « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم » قال فاذا قال ذلك قال الشيطان حفظ منى سائر اليوم . وروى مسلم بسنده عن أبى حميد أوأبى أسيد قال : قال رسول الله ﷺ « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح أبواب رحمتك . وإذا خرج فليقل: اللهم إنى أسألك من فضلك » ورواه النسائى عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبى صلى الله عليه وسلم وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك وإذا خرج فليسلم على النبى ﷺ وليقل : اللهم اعصمنى من الشيطان الرجيم » ورواه ابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا ليث بن أبى سليم عن عبد الله بن حسين عن أمه فاطمة بنت حسين عن جدتها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال « اللهم اغفرلى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك » وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال « اللهم اغفرلى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك » ورواه الترمذى وابن ماجه وقال الترمذى هذا حديث حسن وإسناده ليس بمتصل لأن فاطمة بنت حسين الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى فهذا الذى ذكرناه مع ماتركناه من الأحاديث الواردة فى ذلك كله محاذرة الطول داخل فى قوله تعالى (فى بيوت أذن الله أن ترفع) وقوله (ويذكر فيها اسمه) أى اسم الله كقوله (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقوله (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) وقوله (وأن المساجد لله) الآية . وقوله تعالى (ويذكر فيها اسمه) قال ابن عباس يعنى يتلى كتابه ، وقوله تعالى (يسبح له فيها بالغدو والآصال) أى فى البكرات والعشيات . والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : كل تسبيح فى القرآن هو الصلاة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : يعنى بالغدو صلاة الغداة ويعنى بالآصال صلاة العصر وهما أول ما افترض الله من الصلاة فأحب أن يذكرهما وأن يذكر بهما عباده . وكذا قال الحسن والضحاك (يسبح له فيها بالغدو والآصال) يعنى الصلاة ، ومن قرأ من القراء (يسبح له فيها بالغدو والآصال) بفتح الباء من (يسبح) على أنه مبنى لما لم يسم فاعله وقف على قوله (والآصال) وقفا تاما وابتدأ بقوله (رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) وكأنه مفسر للفاعل المحذوف كما قال الشاعر :

ليبك يزيد ضارع لخصومة * ومختبط مما تطيح الطوائح

كأنه قال : من يبكيه قال هذا يبكيه ، وكأنه قيل من يسبح له فيها، قال رجال . وأما على قراءة من قرأ (يسبح) بكسر الباء فجعله فعلا وفاعله (رجال) فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل لأنه تمام الكلام فقوله تعالى (رجال) فيه إشعار بهممهم السامية ونياتهم وعزائمهم العالية التى بها صاروا عمارا للمساجد التى هى بيوت الله فى أرضه ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه كما قال تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه) الآية وأما النساء فصلاتهن فى بيوتهن أفضل لهن لما رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها ، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها »

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين حدثنى عمرو عن أبى السمح عن السائب مولى أم سلمة عن أم سلمة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : « خير مساجد النساء قعر بيوتهن » وقال أحمد أيضا : حدثنا هرون أخبرنى عبد الله بن وهب حدثنا داود بن قيس عن عبد الله بن سويد الأنصارى عن عمته أم حميد امرأة أبى حميد الساعدى أنها جاءت النبى ﷺ فقالت يارسول الله إنى أحب الصلاة معك . قال « قد علمت أنك تحبين الصلاة معى ، وصلاتك فى بيتك خير من صلاتك فى حجرتك ، وصلاتك فى حجرتك خير من صلاتك فى دارك ، وصلاتك فى دارك خير من صلاتك فى مسجد قومك ، وصلاتك فى مسجد قومك خير من صلاتك فى مسجدى » قال فأمرت فبنى لها مسجد فى أقصى بيت من بيوتها فكانت والله تصلى فيه حتى لقيت الله تعالى ، لم يخرجوه . هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال بشرط أن لاتؤذى أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب كما ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتمنعوا إماء الله مساجد الله » رواه البخارى ومسلم ، ولأحمد وأبى داود « وبيوتهن خيرلهن » وفى رواية « وليخرجن وهن تفلات » أى لاريح لهن . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبا » وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس ، وفى الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت : لو أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد كما منعت نساء بنى إسرائيل . وقوله تعالى (رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) الآيه وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) الآية يقول تعالى لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها عن ذكر ربهم الذى هو خالقهم ورازقهم والذين يعلمون أن الذى عنده هو خيرلهم وأنفع مما بأيديهم لأن ما عندهم ينفد وما عنـــد الله باق ، ولهذا قال تعالى (لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) أى يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم ، قال هشيم عن شيبان قال حدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق حيث نودى للصلاة المكتوبة تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة فقال عبد الله بن مسعود هؤلاء من الذين ذكر الله فى كتابه (رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) الآية وهكذا روى عمرو بن دينار القهرمانى عن سالم عن عبـد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه كان فى السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد فقال ابن عمر فيهم نزلت (رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) رواه ابن أبى حاتم وابن جرير وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن عبد الله بن بكير الصنعانى حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عبد الله بن بجير حدثنا أبو عبد ربه قال : قال أبو الدرداء رضى الله إنى قمت على هذا الدرج أبايع عليه أربع كل يوم ثلثمائة دينار أشهد الصلاة فى كل يوم فى المسجد أما إنى لا أقول إن ذلك ليس بحلال ولـكنى أحب أن أكون من الذين قال الله فيهم (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) وقال عمرو بن دينار الأعور كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا متاعهم فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد فتلا سالم هذه الآية (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ثم قال هم هؤلاء ، وكذا قال سعيد ابن أبى الحسن والضحاك لاتلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة فى وقتها . وقال مطر الوراق كانوا يبيعون ويشترون ولـكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه فى يده خفضه وأقبل إلى الصلاة ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) يقول عن الصلاة المكتوبة ، وكذا قال مقاتل بن حيان والربيع بن أنس وقال السدى عن الصـلا فى جماعة . وقال مقاتل بن حيان لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة وأن يقيموها كما أمرهم الله وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها ، وقوله تعالى (يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصـار) أى يوم القيامة الذى تتقلب فيه القلوب والأبصار أى من شدة الفزع وعظمة الأهوال كقوله (وأنذرهم يوم الآزفة) الآية وقوله (إنمـا يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصـار) وقال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسـكيناً ويتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءاً ولاشكورا * إنا نخاف من ربنـا يوما عبوسا قمطريرا * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) وقوله تعالى ههنا (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) أى هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم وقوله (ويزيدهم من فضله) أى يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم كما قال تعالى (إن الله لايظلم مثقال ذرة) الآية وقال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) الآية وقال (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا) الآية وقال (والله يضاعف لمن يشاء) وقال ههنا (والله يرزق من يشاء بغير حساب) وعن ابن مسعود أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحـداً واحداً فـكلهم لم يشربه لأنه كان صائما فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطراً ثم تلا قوله (يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) رواه النسائى

وابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عنه . وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا سويد بن سعيد حدثنا علي ابن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ليقم الذين لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون وهم قليل ثم يحاسب سائر الخلائق » وروى الطبراني من حديث بقية عن إسماعيل بن عبد الله الكندي عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) قال أجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة لمن صنع لهم المعروف في الدنيا

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين ناريا ومائيا وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين مائيا وناريا ، وقد تكلمنا على كل منها في موضعه بما أغنى عن إعادته ولله الحمد والمنة . فأما الأول من هذين المثلين فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات وليسوا في نفس الأمر على شيء فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض من بعد كأنه بحر طام ، والقيعة جمع قاع كجار وجيرة ، والقاع أيضا واحد القيعان كما يقال جار وجيران وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب ، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار وأما الآل فإنما يكون أول النهار يرى كأنه ماء بين السماء والأرض فاذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء قصده ليشرب منه فلما انتهى إليه (لم يجده شيئا) فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملا وأنه قد حصل شيئا فاذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئاً بالكلية قد قبل إما لعدم الإخلاص أو لعدم سلوك الشرع كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) وقال ههنا (ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) وهكذا روى عن أبي بن كعب وابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد . وفي الصحيحين أنه يقال يوم القيامة لليهود ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون كنا نعبد عزير بن الله . فيقال كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون ؟ فيقولون يا رب عطشنا فاسقنا فيقال ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سرب يحطم بعضها بعضا فينطلقون فيتهافتون فيها ، وهذا المثال مثال لذوي الجهل المركب فأما أصحاب الجهل البسيط وهم الطماطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لايعقلون فمثلهم كما قال تعالى (أو كظلمات في بحر لجي) قال قتادة (لجي) هو العميق (يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها) أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده ولا يدري أين يذهب بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب ؟ قال معهم ، قيل فالى أين يذهبون ، قال لا أدري وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما (يغشاه موج) الآية يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر وهي كقوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم) الآية وكقوله (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) الآية وقال أبي بن كعب في قوله تعالى (ظلمات بعضها فوق بعض) فهو يتقلب في خمسة من الظلم فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار ، وقال السدي والربيع بن أنس نحو ذلك أيضا ، وقوله تعالى (ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور) أي من لم يهده الله فهو هالك

جاهل حائل بائر كافر كقوله (من يضلل الله فلا هادى له) وهذا فى مقابلة ما قال فى مثل المؤمنين (يهدى الله لنوره من يشاء) فنسأل الله العظيم أن يجعل فى قلوبنا نورا وعن أيماننا نورا وعن شمائلنا نورا وأن يعظم لنا نورا

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَٰفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له من فى السموات والأرض أى من الملائكة والأناسى والجان والحيوان حتى الجماد كما قال تعالى (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) الآية : وقوله تعالى (والطير صافات) أى فى حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه وهو يعلم ما هى فاعلة ولهذا قال تعالى (كل قدعلم صلاته وتسبيحه) أى كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه فى عبادة الله عزوجل. ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شىء ولهذا قال تعالى (والله عليم بما يفعلون) ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذى لا تنبغى العبادة إلا له ولا معقب لحكمه (وإلى الله المصير) أى يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا) الآية فهو الخالق المالك الاله الحكم فى الدنيا والأخرى وله الحمد فى الأولى والآخرة

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَٰرِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَٰرِ ﴾

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهى ضعيفة وهو الازجاء (ثم يؤلف بينه) أى يجمعه بعد تفرقه (ثم يجعله ركاما) أى مترا كما أى يركب بعضه بعضاً (فترى الودق) أى المطر (يخرج من خلاله) أى من خلله وكذا قرأها ابن عباس والضحاك ، قال عبيد بن عمير الليثى يبعث الله المثيرة فتقم الأرض قما ثم يبعث الله الناشئة فتنشىء السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير رحمهما الله ، وقوله (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) قال بعض النحاة (من) الأولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض والثالثة لبيان الجنس وهذا إنما يجىء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله (من جبال فيها من برد) معناه أن فى السماء جبال برد ينزل الله منها البرد ، وأما من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب فان من الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضا لكنها بدل من الأولى والله أعلم ، وقوله تعالى (فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء) يحتمل أن يكون المراد بقوله (فيصيب به) أى بما ينزل من السماء من نوعى المطر والبرد فيكون قوله (فيصيب به من يشاء) رحمة لهم (ويصرفه عمن يشاء) أى يؤخر عنهم الغيث، ويحتمل أن يكون المراد بقوله (فيصيب به) أى بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من شر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم ، وقوله (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) أى يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته . وقوله تعالى (يقلب الله الليل والنهار) أى يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا فى قصر هذا حتى يعتدلا ثم يأخذ من هذا فى هذا فيطول الذى كان قصيراً ويقصر الذى كان طويلا والله هو المتصرف فى ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه (إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) أى لدليلا على عظمته تعالى كما قال تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) وما بعدها من الآيات الكريمات

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي

عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم فى خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد (فمنهم من يمشى على بطنه) كالحية وما شاكلها (ومنهم من يمشى على رجلين) كالإنسان والطير (ومنهم من يمشى على أربع) كالأنعام وسائر الحيوانات ولهذا قال (يخلق الله ما يشاء) أى بقدرته لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولهذا قال (إن الله على كل شىء قدير)

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

يقرر تعالى أنه أنزل فى هذا القرآن من الحكم والحكم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولى الألباب والبصائر والنهى ولهذا قال (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم)

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون يقولون قولا بألسنتهم (آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك) أى يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون مالا يفعلون ولهذا قال تعالى (وما أولئك بالمؤمنين) وقوله تعالى (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم) الآية أى إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا فى أنفسهم عن اتباعه وهذه كقوله تعالى (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك - إلى قوله - رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) وفى الطبرانى من حديث روح بن عطاء عن أبى ميمونة عن الحسن عن سمرة مرفوعا « من دعى إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لاحق له » وقوله تعالى (وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) أى وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله (مذعنين) وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق وأحب أن يتحاكم إلى غير النبى صلى الله عليه وسلم ليروج باطله ثم . فاذعانه أو لا لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق بل لأنه موافق لهواه ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره ولهذا قال تعالى (أفى قلوبهم مرض) الآية يعنى لا يخرج أمرهم عن أن يكون فى القلوب مرض لازم لها أو قد عرض لها شك فى الدين أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم فى الحكم ، وأيا ما كان فهو كفر محض والله عليم بكل منهم وما هو منطو عليه من هذه الصفات ، وقوله تعالى (بل أولئك هم الظالمون) أى بل هم الظالمون الفاجرون ، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور تعالى الله ورسوله عن ذلك . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا مبارك حدثنا الحسن قال : كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدعى إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو محق أذعن وعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم سيقضى له بالحق ، وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبى صلى الله عليه وسلم أعرض وقال أنطلق إلى فلان فأنزل الله هذه الآية فقال النبى صلى الله عليه وسلم « من كان بينه وبين أخيه شىء فدعى

إلى حكم من حكام المسلمين فأبى أن يجيب فهو ظالم لاحق له » وهـذا حديث غريب وهو مرسل ، ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لايبغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله فقال (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا) أى سمعا وطاعة . ولهـذا وصفهم تعالى بالفلاح وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب فقال تعالى (وأولئك هم المفلحون) وقال قتادة فى هـذه الآية (أن يقولوا سمعنا وأطعنا) ذكر لنا أن عبادة بن الصامت وكان عقبيا بدريا أحـد نقباء الأنصار أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبى أميـة : ألا أنبئك بماذا عليك وبماذا لك ؟ قال بلى قال فان عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك ، وعليك أن تقيم لسانك بالعـدل ، وأن لاتنازع الأمر أهـله إلا أن يأمروك بمعصـية الله بواحا فما أمرت به من شىء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله . وقال قتادة : ذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولاخير إلا فى جماعة والنصيحة لله ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامة ، قال وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول : عروة الإسلام شهادة أن لاإله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين . رواه ابن أبى حاتم والأحاديث والآثار فى وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله وللخلفاء الراشدين والأئمة إذا أمروا بطاعة الله أكثر من أن تحصر فى هذا المكان

وقوله (ومن يطع الله ورسوله) قال قتادة : يطع الله ورسوله فيما أمره به وترك مانهياه عنه ويخش الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل . وقوله (فأولئك هم الفائزون) يعنى الذين فازوا بكل خير وأمنوا من كل شر فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول صلى الله عليه وسلم لئن أمرتهم بالخروج فى الغزو ليخرجن ، قال الله تعالى (قل لاتقسموا) أى لاتحلفوا ، وقوله (طاعة معروفة) قيل معناه طاعتكم طاعة معروفة أى قد علم طاعتكم إنما هى قول لافعل معه وكما حلفتم كذبتم كما قال تعالى (يحلفون لكم لترضوا عنهم) الآية . وقال تعالى (اتخذوا أيمانهم جنة) الآية ، فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولانطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لايخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون) وقيل المعنى فى قوله (طاعة معروفة) أى ليكن أمركم طاعة معروفة أى بالمعروف من غير حلف ولا اقسام كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف فكونوا أنتم مثلهم (إن الله خبير بما تعملون) أى هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصى ، فالحلف واظهار الطاعة والباطن بخلافه وإن راج على المخلوق فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى لايروج عليه شىء من التدليس بل هو خبير بضمائر عباده وإن أظهروا خلافها ثم قال تعالى (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله . وقوله تعالى (فإن تولوا) أى تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به (فإنما عليه ماحمل) أى إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة (وعليكم ماحملتم) أى بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه (وإن تطيعوه تهتدوا) وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم (صراط الله الذى له ما فى السموات ومافى الأرض) الآية وقوله تعالى (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) كقوله تعالى (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقوله (فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر) قال وهب بن منبه ، أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له شعياء

أن قم فى بنى إسرائيل فانى سأطلق لسانك بوحى فقام فقال : ياسماء اسمعى ويا أرض أنصتى فإن الله يريد أن يقضى شأناً ويدبر أمراً هو منفذه إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة والآجام فى الغيطان والأنهار فى الصحارى والنعمة فى الفقراء والملك فى الرعاة ويريد أن يبعث أميا من الأميين ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق لو يمر على السراج لم يطفئه من سكينته ولو يمشى على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه ، أبعثه بشيرا ونذيراً لا يقول الخنى أفتح به أعينا عميا وآذاناً صما وقلوبا غلفا ، وأسدده بكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به من الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأعرف به بعد النكرة ، وأكثر به القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فئاما من الناس عظيما من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر موحدين مؤمنين مخلصين مصدقين بما جاءت به الرسل رواه ابن أبى حاتم .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أى أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد. وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة : فانه صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها . وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر واسكندرية وهو المقوقس . وملوك عمان والنجاشى ملك الحبشة الذى تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه . ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق فلم شعث ما وهى بعد موته صلى الله عليه وسلم وأخذ جزيرة العرب ومهدها وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضى الله عنه ففتحوا طرفا منها وقتلوا خلقا من أهلها . وجيشا آخر صحبة أبى عبيدة رضى الله عنه ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثا صحبة عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامى فى أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها وتوفاه الله عز وجل واختار له ماعنده من الكرامة . ومن على أهل الاسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق فقام بالأمر بعده قياما تاما لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله فى قوة سيرته وكمال عدله . وتم فى أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها وديار مصر إلى آخرها وأكثر أقليم فارس . وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان وتقهقر إلى أقصى مملكته وقصر قيصر ، وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر إلى القسطنطينية ، وأنفق أموالها فى سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة ، ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الاسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ماهنالك الأندلس وقبرص : وبلاد القيروان وبلاد سبتة مما يلى البحر المحيط ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية ، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ، ولهذا ثبت فى الصحيح

أن رسول الله ﷺ قال « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله فنسأل الله الإيمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا قال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه : حدثنا ابن أبى عمر حدثنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لايزال أمر الناس ماضيا ماوليهم اثنا عشر رجلا » ثم تكلم النبى صلى الله عليه وسلم بكلمة خفيت على فسألت أبى ماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال قال « كلهم من قريش » ورواه البخارى من حديث شعبة عن عبد الملك بن عمير به ، وفى رواية لمسلم أنه قال ذلك عشية رجم ماعز ابن مالك وذكر معه أحاديث أخر وفى هذا الحديث دلالة على أنه لا بد من وجود اثنى عشر خليفة عادلا وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثنى عشر فان كثيرا من أولئك لم يكن لهم من الأمر شىء ، فأما هؤلاء فانهم يكونون من قريش يلون فيعدلون وقد وقعت البشارة بهم فى الكتب المتقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين بل يكون وجودهم فى الأمة متتابعا ومتفرقا ، وقد وجد منهم أربعة على الولاء وهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم ثم كانت بعدهم فترة ثم وجد منهم من شاء الله ، ثم قد يوجد منهم من بقى فى الوقت الذى يعلمه الله تعالى . ومنهم المهدى الذى اسمه يطابق اسم رسول الله ﷺ وكنيته كنيته يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جوراً وظلما وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث سعيد بن جمهان عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله ﷺ قال « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا » وقال الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) الآيه قال كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لاشريك له سراً ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموها فأمرهم الله بالقتال فكانوا بها خائفين يمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح فصبروا على ذلك ما شاء الله ثم إن رجلا من الصحابة قال يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليست فيه حديدة » وأنزل الله هذه الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فآمنوا ووضعوا السلاح . ثم إن الله تعالى قبض نبيه صلى الله عليه وسلم فكانوا كذلك آمنين فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه فأدخل عليهم الخوف فاتخذوا الحجزة والشرط وغيروا فغيرهم وقال بعض السلف خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما حق فى كتاب الله ثم تلا هذه الآية ، وقال البراء بن عازب نزلت هذه الآية ونحن فى خوف شديد ، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى (واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض — إلى قوله — لعلكم تشكرون) وقوله تعالى (كما استخلف الذين من قبلهم) كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض) الآية وقال تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض) الآيتين . وقوله (وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم) الآية كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم حين وفد عليه « أتعرف الحيرة ؟ » قال لم أعرفها ولكن قد سمعت بها قال « فو الذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » قلت كسرى بن هرمز ؟ قال « نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لايقبله أحد » قال عدى بن حاتم فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى ابن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالها . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن أبى سلمة عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والدين والنصر والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخره

للدنيا لم يكن له فى الآخرة نصيب » وقوله تعالى (يعبدوننى لا يشركون بى شيئا) قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة عن أنس أن معاذ بن جبل حدثه قال : بينا أنا رديف النبى ﷺ على حمار ليس بينى وبينه إلا آخرة الرحل قال « يامعاذ » قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال : ثم سار ساعة ثم قال « يامعاذ بن جبل » قلت لبيك يارسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال « يا معاذ بن جبل » قلت لبيك يارسول الله وسعديك قال « هل تدرى ما حق الله على العباد ؟ » قلت الله ورسوله أعلم، قال « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » قال ثم سار ساعة ثم قال « يا معاذ بن جبل » قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال « فهل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قال قلت الله ورسوله أعلم قال « فإن حق العباد على الله أن لا يعذبهم » أخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة وقوله تعالى (ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) أى فمن خرج عن طاعتى بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنبا عظيما ، فالصحابة رضى الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبى ﷺ بأوامر الله عزوجل وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم أظهروا كلمة الله فى المشارق والمغارب وأيدهم تأييدا عظيما وحكموا فى سائر العباد والبلاد ، ولما قصر الناس بعدهم فى بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم ، ولكن قد ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة — وفى رواية حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك — وفى رواية — حتى يقاتلوا الدجال — وفى رواية — حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون » وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين باقامة الصلاة وهى عبادة الله وحده لاشريك له وإيتاء الزكاة وهى الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا فى ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ أى سالكين وراءه فيما به أمرهم ، وترك ما عنه زجرهم ، لعل الله يرحمهم بذلك ، ولاشك أن من فعل هذا أن الله سيرحمهم كما قال تعالى فى الآية الأخرى (أولئك سيرحمهم الله) . وقوله تعالى (لا تحسبن) أى لا تظن يا محمد أن (الذين كفروا) أى خالفوك وكذبوك (معجزين فى الأرض) أى لا يعجزون الله بل الله قادر عليهم وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ولهذا قال تعالى (ومأواهم) أى فى الدار الآخرة (النار ولبئس المصير) أى بئس المآل مآل الكافرين ، وبئس القرار وبئس المهاد

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوٰةِ الْعِشَاءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَٰتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا كَمَا اسْتَـْٔذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَالْقَوَٰعِدُ مِنَ النِّسَآءِ الَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض وما تقدم فى أول السورة فهو استئذان

الأجانب بعضهم على بعض ، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم فى ثلاثة أحوال (الأول) من قبل صلاة الغداة لأن الناس إذ ذاك يكونون نياما فى فرشهم (وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة) أى فى وقت القيلولة لأن الانسان قد يضع ثيابه فى تلك الحال مع أهله (ومن بعد صلاة العشاء) لأنه وقت النوم فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت فى هذه الأحوال لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال ولهذا قال (ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) أى إذا دخلوا فى حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم فى تمكينكم إياهم ولاعليهم إن رأوا شيئا فى غير تلك الأحوال لأنه قد أذن لهم فى الهجوم ولأنهم طوافون عليكم أى فى الخدمة وغير ذلك . ويغتفر فى الطوافين مالا يغتفر فى غيرهم ولهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى الهرة « إنها ليست بنجسة إنها من الطوافين عليكم ـ أو الطوافات ـ » . ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشىء وكان عمل الناس بها قليلا جداً أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثنى عبدالله بن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) إلى آخر الآية ، والآية التى فى سورة النساء (وإذا حضر القسمة أولو القربى) الآية ، والآية التى فى الحجرات (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وفى لفظ له أيضاً من حديث إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف عن عمرو بن دينار عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال : غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات فلم يعملوا بهن (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) إلى آخر الآية . وروى أبو داود حدثنا ابن الصباح وابن سفيان وابن عبدة وهذا حديثه أخبرنا سفيان عن عبيدالله بن أبى يزيد سمع ابن عباس يقول : لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن وإنى لآمر جاريتى هذه تستأذن على قال أبو داود وكذلك رواه عطاء عن ابن عباس يأمر به ، وقال الثورى عن موسى بن أبى عائشة سألت الشعبى (ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) قال : لم تنسخ قلت فان الناس لا يعملون بها فقال : الله المستعان وقال ابن أبى حاتم حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا ابن وهب أخبرنا سليمان بن بلال عن عمرو بن أبى عمر عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى ثلاث عورات التى أمر الله بها فى القرآن فقال ابن عباس : إن الله ستير يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولاحجال فى بيوتهم فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمه فى حجره وهو على أهله فأمرهم الله أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمى الله . ثم جاء الله بعد بالستور فبسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، ورواه أبو داود عن القعنبى عن الدراوردى عن عمرو بن أبى عمر به : وقال السدى كان اناس من الصحابة رضى الله عنهم يحبون أن يواقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن ، وقال مقاتل بن حيان بلغنا والله أعلم أن رجلا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرثد صنعا للنبى ﷺ طعاما فجعل الناس يدخلون بغير إذن : فقالت أسماء يارسول الله ما أقبح هذا إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما فى ثوب واحد غلامهما بغير إذن فأنزل الله فى ذلك (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) إلى آخرها ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ قوله (كذلك يبين الله لكم الآيات والله حكيم عليم) ثم قال تعالى (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم) يعنى إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون فى العورات الثلاث إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال يعنى بالنسبة إلى أجانبهم وإلى الأحوال التى يكون الرجل على امرأته ، وإن لم يكن فى الأحوال الثلاث .

قال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير إذا كان الغلام رباعيا فانه يستأذن فى العورات الثلاث على أبويه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال . وهكذا قال سعيد بن جبير . وقال فى قوله (كما استأذن الذين من قبلهم) يعنى كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه ، وقوله (والقواعد من النساء) قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والضحاك وقتادة

هن اللواتى انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد (اللاتى لايرجون نكاحاً) أى لم يبق لهن تشوف إلى التزوج (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة) أى ليس عليها من الحجر فى التستر كما على غيرها من النساء قال أبو داود حدثنا أحمد بن محمد المروزى حدثنى على بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) الآية فنسخ واستثنى من ذلك القواعد من النساء اللاتى لايرجون نكاحاً الآية. قال ابن مسعود فى قوله (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) قال الجلباب أو الرداء وكذلك روى عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد وسعيد بن جبير وأبى الشعثاء وإبراهيم النخعى والحسن وقتادة والزهرى والأوزاعى وغيرهم، وقال أبو صالح تضع الجلباب وتقوم بين يدى الرجل فى الدرع والخمار وقال سعيد بن جبير وغيره فى قراءة عبدالله بن مسعود (أن يضعن من ثيابهن) وهو الجلباب من فوق الخمار فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره بعد أن يكون عليها خمار صفيق. وقال سعيد بن جبير فى الآية (غير متبرجات بزينة) يقول لايتبرجن بوضع الجلباب ليرى ماعليهن من الزينة. وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن عبد الله حدثنا ابن المبارك حدثنى سوار بن ميمون حدثنا طلحة بن عاصم عن أم المصاعن[1] أنها قالت دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت يا أم المؤمنين ما تقولين فى الخضاب والنفاض والصباغ والقرطين والخلخال وخاتم الذهب وثياب الرقاق فقالت: يامعشر النساء قصتكن كلها واحدة أحل الله لكن الزينة غير متبرجات، أى لا يحل لكن أن يروا منكن محرما. وقال السدى كان شريك لى يقال له مسلم، وكان مولى لامرأة حذيفة بن اليمان فجاء يوما إلى السوق وأثر الحناء فى يده فسألته عن ذلك فأخبرنى أنه خضب رأس مولاته وهى امرأة حذيفة فأنكرت ذلك فقال إن شئت أدخلتك عليها فقلت نعم فأدخلنى عليها فاذا هى امرأة جليلة فقلت لها إن مسلما حدثنى أنه خضب رأسك فقالت نعم يابنى إنى من القواعد اللاتى لايرجون نكاحاً وقد قال الله تعالى فى ذلك ماسمعت. وقوله (وأن يستعففن خير لهن) أى وترك وضعهن لثيابهن، وإن كان جائزاً خير وأفضل لهن والله سميع عليم

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

اختلف المفسرون رحمهم الله فى المعنى الذى رفع لأجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ههنا فقال عطاء الخراسانى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقال إنها نزلت فى الجهاد وجعلوا هذه الآية ههنا كالتى فى سورة الفتح وتلك فى الجهاد لامحالة أى أنهم لا إثم عليهم فى ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم وكما قال تعالى فى سورة براءة (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم* ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه — إلى قوله — أن لايجدوا ما ينفقون) وقيل المراد ههنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لايرى الطعام وما فيه من الطيبات فربما سبقه غيره إلى ذلك ولا مع الأعرج لأنه لايتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه والمريض لايستوفى من الطعام كغيره فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم فأنزل الله هذه الآية رخصة فى ذلك وهذا قول سعيد بن جبير ومقسم، وقال الضحاك كانوا

(١) لم نر هذا الاسم فى كتب أسماء الرواة وفى النسخة الأميرية أم الضاء

قبل البعثة يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذراً وتعززاً ولئلا يتفضلوا عليهم فأنزل الله هذه الآية . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى (ليس على الأعمى حرج) الآية قال كان الرجل يذهب بالأعمى أو بالأعرج أو بالمريض إلى بيت أبيه أو أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته أو بيت خالته فكان الزمنى يتحرجون من ذلك يقولون إنما يذهبون بنا إلى بيوت عشيرتهم فنزلت هذه الآية رخصة لهم، وقال السدى كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه فتتحفه المرأة بشيء من الطعام فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم فقال الله تعالى (ليس على الأعمى حرج) الآية وقوله تعالى (ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) إنما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ وليساوي به ما بعده في الحكم وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء في المسند والسنن من غير وجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أنت ومالك لأبيك » وقوله (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم — إلى قوله — أو ما ملكتم مفاتحه) هذا ظاهر وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل في المشهور عنهما ، وأما قوله (أو ما ملكتم مفاتحه) فقال سعيد بن جبير والسدى :هو خادم الرجل من عبد وقهرمان فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف وقال الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان المسلمون يذهبون في النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم ويقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه فكانوا يقولون إنه لا يحل لنا أن نأكل انهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء فأنزل الله (أو ما ملكتم مفاتحه) وقوله (أو صديقكم) أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك ، وقال قتادة إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه وقوله (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية وذلك لما أنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) قال المسلمون إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل من الأموال فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فكف الناس عن ذلك فأنزل الله (ليس على الأعمى حرج — إلى قوله — أو صديقكم) وكانوا أيضاً يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره فرخص الله لهم في ذلك فقال (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً)وقال قتادة : كان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية حتى ان كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه فأنزل الله (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل كما رواه الإمام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد ابن مسلم عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم إنا نأكل ولا نشبع . قال « لعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه » ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث الوليد بن مسلم به ، وقد روى ابن ماجه أيضاً من حديث عمرو بن دينار القهرماني عن سالم عن أبيه عن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال « كلوا جميعاً ولا تفرقوا فإن البركة مع الجماعة » وقوله (فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم) قال سعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والزهري يعني فليسلم بعضكم على بعض ، وقال ابن جريج أخبرني أبو الزبير سمعت جابر بن عبد الله يقول إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة قال ما رأيته إلا يوجبه قال ابن جريج وأخبرني زياد عن ابن طاوس أنه كان يقول : إذا دخل أحدكم بيته فليسلم قال ابن جريج قلت لعطاء أواجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم ؟ قال لا ولا أوثر وجوبه عن أحد ولكن هو أحب إلى وما أدعه إلا ناسياً . وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله ، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وروى الثوري عن عبد الكريم الجزري عن مجاهد إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل بسم الله والحمد لله السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وقال

قتادة : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإنه كان يؤمر بذلك . وحدثنا أن الملائكة ترد عليه وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عويد بن أبي عمران الجوني عن أبيه عن أنس قال : أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال قال « يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك ، وإذا دخلت — يعني بيتك — فسلم على أهلك يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك . يا أنس ارحم الصغير ووقر الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة » . وقوله (تحية من عند الله مباركة طيبة) قال محمد بن إسحق حدثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول : ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله سمعت الله يقول (فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة) فالتشهد في الصلاة : التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ثم يدعو لنفسه ويسلم . وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث ابن إسحق . والذي في صحيح مسلم عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ يخالف هذا والله أعلم وقوله (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) لما ذكر تعالى ما في هذه السور الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة نبه تعالى عباده على أنه يبين لعباده الآيات بيانا شافيا ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف لاسيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك أمرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته ، وإن من يفعل ذلك فانه من المؤمنين الكاملين ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء ولهذا قال (فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم) الآية . وقد قال أبو داود حدثنا أحمد بن حنبل ومسدد قالا حدثنا بشر هو ابن المفضل عن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإذا أراد أن يقوم فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة » وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن عجلان به وقال الترمذي حديث حسن

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قال الضحاك عن ابن عباس كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاما لنبيه صلى الله عليه وسلم قال فقولوا يا نبي الله يا رسول الله وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير . وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يبجل وأن يعظم وأن يسود : وقال مقاتل في قوله (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) يقول لا تسموه إذا دعوتموه يا محمد ولا تقولوا يا ابن عبد الله ولكن شرفوه فقولوا يا نبي الله يا رسول الله وقال مالك عن زيد بن أسلم في قوله (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) قال أمرهم الله أن يشرفوه

هذا قول وهو الظاهر من السياق كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا) إلى آخر الآية وقوله (ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ـ إلى قوله ـ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم) الآية فهذا كله من باب الأدب فى مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته . والقول الثانى فى ذلك أن المعنى فى (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) أى لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره فان دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا حكاه ابن أبى حاتم عن ابن عباس والحسن البصرى وعطية العوفى والله أعلم . وقوله (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً) قال مقاتل ابن حيان هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث فى يوم الجمعة ويعنى بالحديث الخطبة فيلوذون ببعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حتى يخرجوا من المسجد وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا باذن من النبي ﷺ فى يوم الجمعة بعد ما يأخذ فى الخطبة وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب بطلت جمعته وقال السدى : كانوا إذا كانوا معه فى جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم ، وقال قتادة فى قوله (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) يعنى لواذا عن نبى الله وعن كتابه . وقال سفيان (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) قال من الصف ، وقال مجاهد فى الآية (لواذا) خلافا . وقوله (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) أى عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قبل وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » أى فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنا وظاهراً (أن تصيبهم فتنه) أى فى قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة (أو يصيبهم عذاب أليم) أى فى الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك كما روى الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائى يقعن فى النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها ـ قال ـ فذلك مثلى ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبونى وتتقحمون فيها » أخرجاه من حديث عبد الرزاق

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه عالم الغيب والشهادة وهو عالم بما العباد عاملون فى سرهم وجهرهم فقال (قد يعلم ما أنتم عليه) وقد للتحقيق كما قال قبلها (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) وقال تعالى(قد يعلم الله المعوقين منكم) الآية وقال تعالى (قد سمع الله قول التى تجادلك) الآية وقال (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)وقال(قد نرى تقلب وجهك فى السماء) الآية فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقد كقول المؤذن تحقيقا وثبوتاً : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة .فقوله تعالى (قد يعلم ما أنتم عليه)أى هو عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة كما قال تعالى (وتوكل على العزيز الرحيم ـ إلى قوله ـ إنه هو السميع العليم) وقوله (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين وقال تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر ، وقال

تعالى (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) وقال تعالى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) الآية وقال تعالى (ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) وقال (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جداً . وقوله (ويوم يرجعون إليه) أى ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة (فينبئهم بما عملوا) أى يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير كما قال تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) وقال (ووضع الكتب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا) ولهذا قال ههنا (ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شىء عليم) والحمد لله رب العالمين ونسأله التمام . آخر تفسير سورة النور ولله الحمد والمنة.

﴿ تفسير سورة الفرقان مكية ﴾

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيراً * ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾

يقول تعالى حامدا لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم كما قال تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) الآية وقال ههنا (تبارك) وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة (الذى نزل الفرقان) نزل فعل من التكرر والتكثر كقوله (والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل) لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة والقرآن نزل منجما مفرقا مفصلا آيات بعد آيات وأحكاما بعد أحكام وسوراً بعد سور وهذا أشد وأبلغ وأشد اعتناء بمن أنزل عليه كما قال فى أثناء هذه السورة (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) ولهذا سماه ههنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والغى والرشاد والحلال والحرام وقوله (على عبده) هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافه إلى عبوديته كما وصفه بها فى أشرف أحواله وهى ليلة الإسراء فقال (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) وكما وصفه بذلك فى مقام الدعوة إليه (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه فقال (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) وقوله (ليكون للعالمين نذيرا) أى إنما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) الذى جعله فرقانا عظيما ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ويستقل على الغبراء كما قال ﷺ « بعثت إلى الأحمر والأسود » وقال « إنى أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى » فذكر منهن : أنه « كان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » كما قال تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) الآية أى الذى أرسلنى هو مالك السموات والأرض الذى يقول للشىء كن فيكون وهو الذى يحيى ويميت ، وهكذا قال ههنا (الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك) ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك . ثم أخبر أنه (خلق كل شىء فقدره تقديراً) أى كل شىء مما سواه مخلوق مربوب وهو خالق كل شىء وربه ومليكه وإلهه وكل شىء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره

﴿ وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُوراً ﴾